# الطريق

ⵓⴰⵔⵉⵖ

جريدة أسبوعية شاملة


## الثقافة الرياضية بين الفوز والهزيمة

36-35

## التنوير الثقافي في مواجهة الخرافة

38

المدير المسؤول : عبد الواحد المهتاني - رئيس التحرير : يزيد البركة - السبت 26 سبتمبر 2020 م / 9 صفر 1442 هـ - العدد : 333 - الثمن : 5.00 دراهم

# الزوايا بالمغرب.. صناعة الولاء

من ص5 إلى ص31

NABIL


**جريدة الطريق في حوار جريء مع :**

• محمد عبد الوهاب رفيقي

28-27-26

**بأي ذنب قتلت غزلان**

• سارة سوجار

33

**بنعمرو يقود كتيبة الدفاع..**

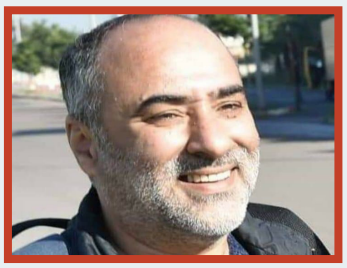

• خالد بكاري

4

**عدنان.. ودعاة المقصلة**

• رقية زعفاوي

34

# الافتتاحية :
# الجائحة وإيديولوجية المحافظة والتضبيع

زعم أحد منظري الإسلام السياسي في مقال بجريدة وطنية، أن إغلاق المساجد الصغيرة بالأحياء واستمرار منع صلاة الجمعة بسبب انتشار وباء كرونا، ستكون له تداعيات سلبية على تدين المغاربة وعلى أخلاقهم وقيمهم. بل سيؤدي ذلك إلى التأثير على المشروعية الدينية والسياسية للنظام، ويساهم في نشر الفكر العلماني في المجتمع المغربي. وهكذا فان هذا المنظر - الداعية يؤكد أن جماعات الإسلام السياسي تتعامل مع الدين الإسلامي كأصل تجاري، تستثمره في نشر إيديولوجيتها المحافظة، واستقطاب المغاربة والنصب عليهم بادعاء الدعوة إلى الله وإلى الإصلاح ومحاربة الفساد الأخلاقي والرذيلة في المجتمع. نتذكر أنه في بداية الجائحة حاول بعض غلاة التطرف الديني تفسيرها بشكل خرافي واعتبار فيروس كورونا "من جنود الله" وادعى أحد "علمائهم" أن رمضان سيقضي عليه !، وحاولت بعض المجموعات التمرد على قرار الدولة الاحترازي بإغلاق المساجد ومنع صلاة الجماعة بالاحتجاج في الشارع، وتنظيم صلاة التراويح فوق أسطح المنازل. وفي النهاية بعد فشل الرهان على التحريض والتهويل ركنوا إلى الصمت على مضض، خضوعا لحالة الطوارئ الصحية كباقي المواطنين والمواطنات.

لقد سبق لعدة خبراء في السوسيولوجيا وعلم النفس أن كشفوا وأوضحوا الأسباب الموضوعية، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لانتشار ظاهرة التدين الشكلي في المجتمعات العربية والإسلامية في العقود الأخيرة، وفي المغرب لعبت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في عهد الوزير العلوي المدغري دورا أساسيا في تأسيس وتوجيه جماعات الإسلام السياسي، وتوظيفها في محاربة المعارضة الديمقراطية، واليسار على الخصوص في المؤسسات التعليمية والجامعات. في هذا السياق تم أيضا الاهتمام والعناية بالزوايا والأضرحة والتعليم العتيق، ويكفي أن نذكر بالأرقام المهولة التي أعلنها وزير الأوقاف الحالي، حيث صرح أن هناك 5038 ضريح، و1496 زاوية، أنفقت عليها الوزارة تقريبا 16مليار درهم! ويصل عدد مؤسسات التعليم العتيق 292 مؤسسة، وعدد الكتاتيب إلى 10496 كتابا، إضافة لهذه المؤسسات والكتاتيب، انتشرت في السنوات الأخيرة ظاهرة محلات الرقية الشرعية والتداوي بالأعشاب في جميع المدن المغربية تحت أنظار السلطات المحلية التي تكتفي بالإحصاء والمتابعة.

إن الأمر يتعلق بحرب إيديولوجية وسياسة تضبيع وتجهيل واسعة النطاق تتعرض لها الأغلبية الساحقة من الشعب لتزييف وعيها وإبعادها عن النضال من أجل حقوقها المشروعة. طبيعي والحالة هذه أن نعاين يوميا الاستخفاف والاستهتار بتوجيهات وزارة الصحة الخاصة بالوقاية من فيروس كورونا.

نحن نعرف أن منظري المحافظة والتقليد، يعتبرون أن مشروعية النظام مرتبطة بالحفاظ على الزوايا وباقي بنيات التركيبة التقليدية التي تعيد إنتاج الهيمنة الإيديولوجية للطبقة الحاكمة، لكن هذه "الإستراتيجية " وإن ساهمت في إطالة عمر الفساد والاستبداد فإنها بالتأكيد تسير في الأفق المسدود بالنظر لطبيعة العصر.

الطريق

# الطليعة.. تطالب بمنهجية وطنية لمحاربة ظاهرة الاغتصاب

استنكرت الكتابة الوطنية لحزب الطليعة الديمقراطي الاشتراكي، في بيانها الأخير، بشدة الجريمة البشعة والمقززة التي ذهب ضحيتها الطفل عدنان بوشوف بمدينة طنجة، حيث تساءل باستغراب عن بطء الجهات الأمنية المختصة في وضع حد للجريمة قبل وقوع الكارثة، وطالبت بمنهجية وطنية فعالة لمحاربة ظاهرة الاغتصاب البشعة التي انتشرت في بلادنا. كما سجلت بأسف التدهور الخطير للوضع الوبائي الذي يتفاقم يوما بعد يوم، بسبب سيطرة الجهل وتدني الوعي الصحي، وفشل الدولة والحكومة في التدبير الاستباقي والعقلاني للأزمة، مما عمق أزمة ثقة الأغلبية الساحقة من الشعب المغربي في جميع المؤسسات.

وقد نبه حزب الطليعة إلى أن الأزمة قد تتحول إلى كارثة وطنية لم يسبق لبلادنا أن مرت بها منذ عقود، نظرا لانهيار العديد من القطاعات مثل السياحة، والعقار، والمهن الحرة ذات المداخيل غير القارة، والحرف التقليدية، وكذا غموض الآفاق، وارتفاع التسريحات الجماعية من العمل، في غياب تفعيل حقيقي للتضامن الوطني، وخضوع الدولة للوبيات الفساد المتوحشة.

كما ذكرت الكتابة الوطنية، أن اللجوء المستمر للمقاربة القمعية لمواجهة الاحتجاجات الاجتماعية مثل ما حدث مؤخرا في المنطقة الشرقية (جرادة - بني تدجيت)، لن يساهم إلا في رفع منسوب الاحتقان والتوتر، وأن تصفية الأجواء بإطلاق جميع المعتقلين السياسيين، وإيقاف المتابعات والمحاكمات الصورية في حق النشطاء الحقوقيين والمدونين والصحفيين.

في الأخير جدد حزب الطليعة إدانته بقوة لإقدام قادة الإمارات والبحرين على إبرام اتفاقيات الخيانة والعار مع الكيان الصهيوني، خدمة لمصالح هذا الأخير وراعيته الإدارة الأمريكية ضدا على مصالح وحقوق الشعب الفلسطيني المغتصبة، ودعا بالمناسبة كافة التنظيمات السياسية والنقابية والحقوقية والجمعوية المناهضة للتطبيع إلى مزيد من التنسيق والتعاون لدعم كفاح الشعب الفلسطيني لاسترجاع حقوقه التاريخية والمشروعة في التحرير وعودة اللاجئين وبناء دولته الوطنية المستقلة وعاصمتها القدس.

فيدرالية اليسار الديموقراطي

ⵜⴰⵎⴰⵡⴰⵙⵜ ⵏ ⵜⵣⵡⵉⵔⴰ ⴰⵏⵎⵓⵔⴰⵙ ⵜⴰⵎⵓⵔⴰⵜⵉⵜ

*Fédération de la Gauche Démocratique*

# الشناوي.. سنتصدى لتمرير قانون كبح الإضراب

في تصريح للبرلماني عن فيدرالية اليسار الديمقراطي مصطفى الشناوي، أكد أنه من المؤسف وضد الأعراف وما هو متفق عليه وخارج السياق الذي تعرفه البلاد والوضع الوبائي المقلق، أن تحاول الحكومة فرض قانون الإضراب للمزيد من تكميم الأفواه وخرق الحريات، تماهيا مع مصالح الليبرالية المتوحشة التي تعبث بالبلاد. بعد أن تهربت الحكومة من التفاوض ثلاثي الأطراف للتوافق على صيغة متوازنة تضمن حقوق الشغيلة.

وللإشارة فقد حاولت الحكومة يوم الأربعاء 16/09/2020 في مجلس النواب بلجنة القطاعات الاجتماعية، بحضور وزير الشغل و الإدماج المهني، تقديم مشروع قانون تنظيمي رقم 97.15 بتحديد شروط وكيفية ممارسة حق الإضراب. وأضاف نائب فيدرالية اليسار أن الحكومة ماضية في هجومها على الطبقة العاملة وعلى الطبقة الوسطى والفقيرة وتنفيذ أجندة الرأسمال الجشع، وأكد الاستمرار في التصدي لهذه الهجمة.

# بلافريج..
# الدولة تتبع وصفة بنكيران برفع يدها عن الصحة

في اجتماع القطاعات الاجتماعية بالبرلمان، كشف النائب عن فيدرالية اليسار الديمقراطي أمام وزير الصحة، عن معاناة المغاربة في البحث عن أسرة الإنعاش أمام توسع جائحة كورونا، خصوصا النموذج الصارخ لمدينة مراكش، ما يكشف تضارب الأرقام المصرح بها. كما أشار لغياب إرادة سياسية في دعم الدولة لقطاع الصحة، واحتقار كل ما هو عمومي في هذه البلاد وخصوصا صحة المواطنات والمواطنين. وذكر بلافريج بتصريح رئيس الحكومة السابق برفع الدولة يدها عن الصحة والتعليم، والذي صارت على نهجه هاته الحكومة أيضا بإهمال الأطباء والممرضين العموميين، وبدعم الدولة للوبيات القطاع الخاص، وعدم تخصيص الميزانية الكافية للصحة في قانون المالية. فالنهوض بقطاع الصحة يتطلب مجهودا استثنائيا، فعلى الأقل لو تفاعل البرلمان والحكومة مع مقترحات الفيدرالية للرفع من ميزانية الصحة، ما كنا لنصل لهاته الكارثة مع توسع الوباء.

بصوت مرتفع

# الممارسة الدينية، بين الصحة والسلطة

◆ محمد امباركي

يحكي التاريخ أن الأوبئة التي حلت بالبشرية كان لها مفعول قوي على يقينيات ومعتقدات الناس في اتجاهين متناقضين، إما أنها عملت على زعزعة المعتقد العام والشك في الديانة السائدة التي تعجز عن حماية الناس وبالتالي قد تختفي هذه الديانة لتحل محلها ديانة أخرى، أو قد يحدث العكس حيث تؤدي الصدمة الوبائية الى العودة القوية للتدين حيث يتحول الدين الى ملاذ وملجأ ورهان إنقاذ رباني.

في الزمن الراهن أي زمن كورونا حيث يكون الطاقم الطبي والصحي في الواجهة الميدانية المباشرة ويقيم فيه العلم والعلماء داخل المختبرات من أجل اكتشاف العلاجات المضادة، لا تصبح الأولوية للنقاش حول تواري رجال الدين الى الخلف والتعليق المؤقت لبعض الشعائر والمؤسسات الدينية،لأن هذه مسألة طبيعية في زمن الأوبئة ولا حرج فيها طالما أن التدين حرية شخصية ولا يتحول إلى إيديولوجية مغلقة تعتمد منطق التعبئة وتجييش بسطاء الناس ضحايا التهميش والتجهيل والتفقير، إما احتجاجا على غلق دور العبادة وتعطيل بعض الطقوس الدينية في إطار الاستراتيجية الوقائية ضد الأوبئة، أو تصريح بعض قادة الجماعات الإسلاموية بأن تعطيل صلاة الجمعة من الكبائر، ونحن نعلم جيدا أن صلاة الجمعة لا تسعفها المساجد فتمتد الى خارجها بالأزقة المحاذية !، وإما بدعوى التضرع لله في مسيرات جماعية لدحر الوباء، وكذلك خروج بعض فقهاء الصراخ للترويج لفكرة أن الوباء انتقام إلهي، أو اقتراح بعض الوصفات العلاجية العشوائية في محاولة يائسة لتجاوز العلم وادعاء تفوق وهمي هو في الحقيقة دعاية وتضخيم لصاحبها أكثر منه شيء آخر. وهنا يصبح الدين بمثابة رأسمال تجاري لتشجيع الإقبال الاجتماعي على بضاعة فاسدة.. وهكذا يتحول رجال الدين أنفسهم الى مصدر ضرر حقيقي للدين نفسه، بشكل لا يختلف عن الأنظمة السياسية التي تستغل الدين وتلجأ إليه في لحظات الأزمة كمراحل التمرد عليها والثورة ضدها، ألم يقل فيلسوف العقلانية العظيم ابن رشد "إن التجارة بالأديان هي التجارة الرائجة في المجتمعات التي ينتشر فيها الجهل."

وبالتالي فالسؤال الأهم في الحديث عن علاقة الدين والوباء هو كيف يمكن أن تكون الممارسات والمؤسسات الدينية في خدمة المعركة ضد الجائحة باعتبارها معركة مجتمعية؟ بمعنى كيف يصبح الدين في أبعاده الطقوسية والرمزية وفضاءاته جزء من الاستراتيجية الوقائية ضد الوباء؟. أي كيف تصبح الممارسة الدينية في خدمة الصحة وليس السلطة؟

يمكن بقليل من العزيمة والوعي المواطناتي أن ننتج مجتمعا مدنيا من داخل الدين كممارسة سوسيو ـ ثقافية ذاتية خارج الرهانات الإديو- سياسية الكبرى المرتبطة بالصراع حول السلطة وتسييس الجوائح أو تعبئة احتياطي ديني خفي في مواجهة الحراكات الاجتماعية والانتفاضات الشعبية من أجل الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية، كالزوايا، الجمعيات الدينية، وفقهاء الكتاتيب..، كما حصل خلال حراك 20 فبراير والحراك الشعبي بالريف. وقد يتحقق هذا الهدف من خلال تشجيع قيم التضامن والتعايش والتطوع و التجاوب الايجابي مع بعض التدابير الاحترازية ذات العلاقة بالسلوك الديني، كإغلاق المؤسسات الدينية وتعطيل الطقوس الجماعية التي قد تكون مصدرا حيويا للوباء كصلاة الجمعة، صلوات الأعياد، الحج، شعيرة عيد الأضحى..، تفاديا لإضافة "البؤرة الدينية" إلى خريطة البؤرتين المهنية والمدرسية.. قد يعكس هذا الرضى شبه الجماعي إزاء هذه التدابير شعورا علمانيا كامنا في المجتمع على حد تعبير السوسيولوجي محمد الناجي، لكن من الذي يمنع رجال الدين والمريدين من الانخراط في التوعية الصحية من داخل المساجد، وذلك باستغلال ميكروفونات الآذان والخطب الدينية الرقمية ومنصات التواصل الاجتماعي ودعوة المواطنين مؤمنين وغير مؤمنين (مع العلم أن الكل مؤمن لأنه هناك المؤمن الممارس والمؤمن غير الممارس والمؤمن بفكرة أخرى) إلى التقيد بالإجراءات الاحترازية كالتعقيم وغسل اليدين وارتداء الكمامة والتباعد الجسدي وتفادي التجمعات..؟ أو الإلحاح على التأهب إلى تحويل المساجد الى مستشفيات ميدانية في حالة تفشي واسع للوباء؟، وكذا الدعوة الى تحويل مالية الأوقاف والشؤون الإسلامية الضخمة ومداخيلها العينية والمالية المعروفة والمسكوت عنها لصالح وزارة الصحة؟..

فكم من ديانة قامت بالإشعاع لنفسها من داخل مساعدة الناس على مواجهة الجائحة بدل توزيع وعود جنات النعيم وحور الحين وفراديس شتى المتع، والتي تستوجب الانصياع لدعاوي الجهادية وفقه الحرب والقصاص؟ وكم من رجال دين كانوا في مقدمة المواجهة واصبحوا شهداء الواجب الديني والصحي؟، ولكن كم من رجال دين أيضا قتلوا أنفسهم وقتلوا معهم الناس بدعواتهم الرعناء إلى التجمعات وإقامة الشعائر الجماعية في عز الجوائح، والأمثلة كثيرة في التاريخ الأوروبي والإسلامي..

إن خدمة الدين للعلم والعلم للدين، لا تستقيم إلا من خلال الفهم العميق لآليات اشتغال المنطق العلمي القائم على سلطة الحجة، والمنطق الديني القائم على الإيمان والتسليم والعلاقة الفردية المحضة بالله بدون وساطات فقهية أو مؤسساتية، وبالتالي فإن سعي الأيدولوجية الفقهية لتحل محل العلم، هو ما يجعل من الإشكالية التاريخية بين العقل والنقل والسياسة والدين تستمر في التاريخ والجغرافية السياسية والثقافية للعالم العربي الإسلامي إلى يومنا هذا، طالما أنها إشكالية غذتها وتغذيها أنظمة سياسية مستبدة سياسيا ودينيا، وحاولت تاريخيا أن تستمد مشروعية وجودها وأصلها وقراراتها من حقل القداسة بدعوى أن الخليفة ظل الله في الأرض، وكل من تعرض من المفكرين والفلاسفة لهذه الإشكالية بالتفكيك من منطق أن عدم حسمها تاريخيا هو امتداد بشكل من الأشكال للاستبداد السياسي والديني، إلا وتعرض للحصار والاغتيال من طرف تحالف الفقهاء والسلطان سواء قديما أو حديثا..

من هنا، فإن الدعوة لتحرير الدين من استغلال الدولة ومن سلطة الفقه المتمذهب والجماعة السياسية بغطاء ديني، هو الضامن لحرية ممارسته وتمثله كجزء لا يتجزأ من الوجدان الجمعي للمجتمع وأخلاقه الفردية والجماعية.. لهذا لما اقترح حزب الطليعة الديمقراطي الاشتراكي، تعليق شعيرة عيد الأضحى كآلية من الآليات الاستباقية للحد من الانتشار الاجتماعي للجائحة، تم تحميل المقترح أكثر من حجمه من طرف دعاة "الإسلام الإيديولوجي" وأنصار أطروحة "مستقبلنا هو أن نسكن في ماضينا المجيد" بمحاربة قيم العقل والتقدم لكن بالاستمتاع بثمارهما المادية والرمزية بطريقة انتقائية فجة تعكس الأزمة العميقة للذهنية "الأصولية" والمشروع الماضوي !، رغم أن المقترح نابع من إدراك عميق لتاريخية الممارسة الدينية والمنافحة عن الرسالة الإنسانية والأخلاقية للدين، "وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَة" البقرة:195، وبالتالي لم تتحكم في المقترح أية اعتبارات إيديولوجية، بل كانت له أبعاد صحية وبيئية قحة أكدت صدقيتها الأحداث الجارية والتطور المهول للحالة الوبائية التي فاقمت من تفشيها جدلية العادات والتقاليد الجماعية المحيطة بالعيد من جهة والمقاومة الوبائية من جهة ثانية، وهذه كلها تجليات لفشل الاستراتيجية الاستباقية للحكومة في مواجهة جائحة كورونا والتي لا تنفصل عن فشل الدولة ككل في إصلاح الحقل الديني !.

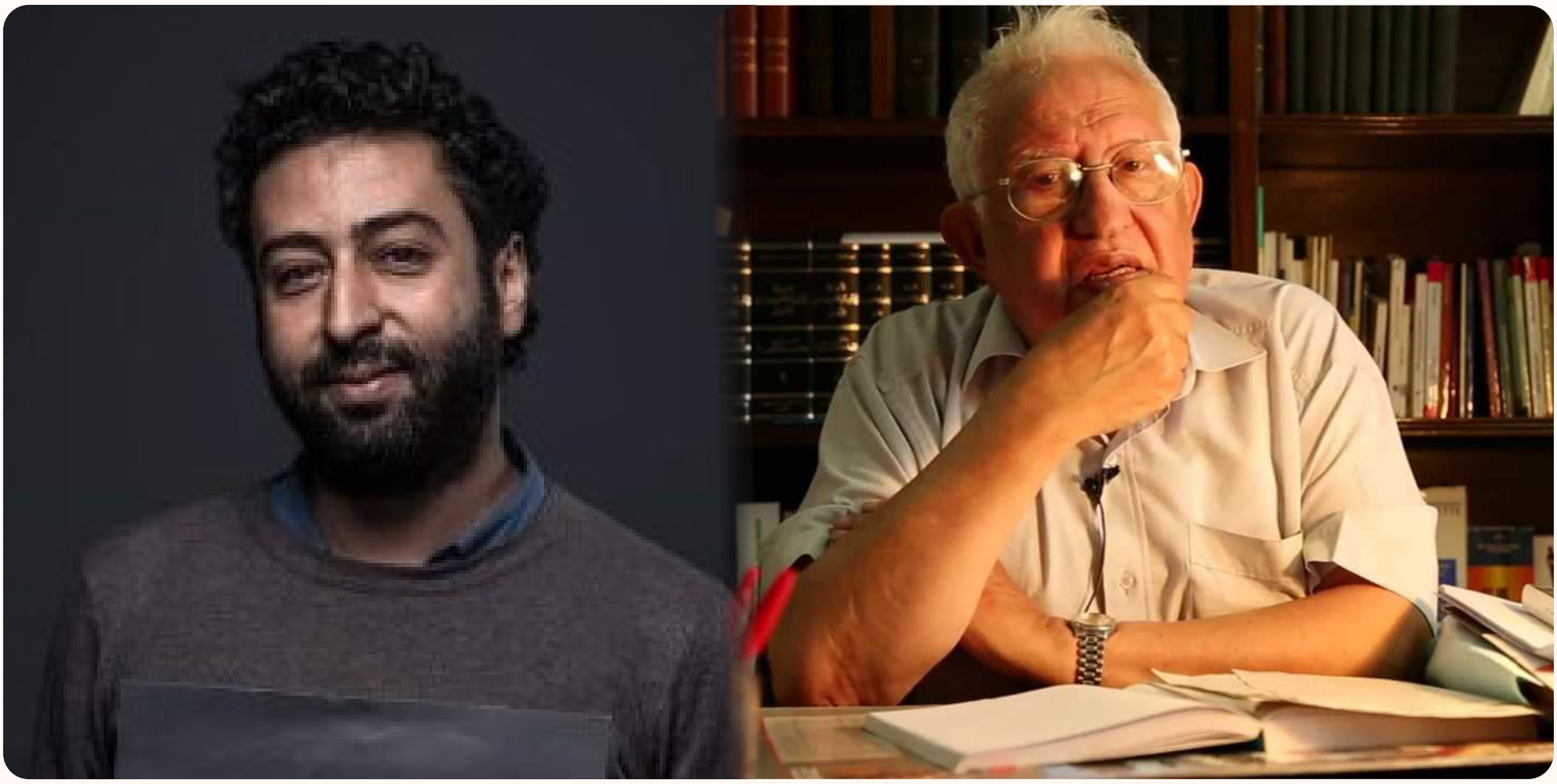

# الكبير بنعمرو
# يقود كتيبة الدفاع عن الصحفي عمر الراضي

شحنة من الأمل أخذتها اليوم عندما التقيت النقيب عبد الرحمان بنعمرو، بعد انتهاء الجلسة الأولى من التحقيق التفصيلي مع عمر الراضي أمام قاضي التحقيق، كان صحبة عدد من المحامين الذين تطوعوا لمؤازرة عمر، وطبعا أم وأب عمر.

ليس عندي ذرة شك في براءة عمر، ولن أكون مبالغ إذا قلت بأن إيماني ببراءته يعادل إيمان خالتي فتيحة وأبي ادريس والدي عمر. ذاك الإيمان الذي لا يحتاج للإطلاع على أوراق الملف، لأنك تعرف الشخص مثل معرفتك بمسام جلدك.. ولكن أحيانا تحتاج لمن يدعم هذه الثقة.. نوع من الدعم النفسي وسط الكثير من الانهيارات.

ما علاقة النقيب بنعمرو بكل هذا ؟

حضور بنعمرو للبيضاء لمؤازرة عمر تطوعا، وهو في هذه السن المتقدمة، يعني لي الكثير.. ليس لتاريخه الحقوقي، ولمصداقيته، ولثقله القانوني.. بل لسبب آخر.

من يتتبع بنعمرو وتاريخه النضالي والسياسي والحقوقي، يعرف أن له إيمانا "ارثودكسيا" بأمرين لا يقبل فيهما ذرة تنازل أو تساؤل أو تشكيك.. رغم أننا جيل عرف السياسة في أواخر الثمانينات وبداية التسعينات كنا نعتقد أنه متشدد فيهما، نحن ذلك الجيل الذي اكتشف دهشة العالم والسياسة مع بداية انهيار المعسكر الشرقي وتراجع الخطابات القومية وتصاعد النزعة الحقوقية.

هذين الأمرين هما : أولا، مغربية الصحراء، وهنا لا تحاول مجادلة بنعمرو حول "حق الشعوب في تقرير المصير"، بالنسبة إليه التجزئة هي مخطط استعماري للتحكم في الشعوب، وبالنسبة إليه جيش التحرير حارب من أجل استرجاع الصحراء كجزء من استكمال التحرير، وأن مهمة التحرير واحدة من مهام الحركة الديمقراطية. وبالتالي هاته القضية بالنسبة إليه لن تكون محل اصطدام مع الدولة إلا إذا تنازلت فيها الدولة.

وثانيا أن لا ثقة في المستعمرين السابقين، ولذلك فهو لا يؤمن بالضغط الخارجي من طرف أنظمة غربية يعتبرها استعمارية، ويؤمن بأنه إذا كان الاختيار بين مواجهة مخططات الغرب الاستعماري وبين مواجهة الاستبداد المحلي ( ما يسميه الحكم الفردي)، فالتناقض في هذه الحالة مع الأول رئيسي ومع الثاني ثانوي.

يمكن أن يقول القائل بأن هذا الطرح كلاسيكي، ولكن ما يهمني أنه يستحيل للنقيب بنعمرو أن يتطوع للدفاع عن "جاسوس" يخدم مصالح من يعتبرهم بنعمرو مستعمرين لحد الآن.. من يعرف بنعمرو، سيؤكد أنه لو كان عنده قشة من الشك، ليس فقط أنه سيرفض التطوع، بل أنه لن يقبل حتى بالترافع المؤدى عنه.

في هذه الأمور، بنعمرو أكثر تشددا من النظام، لذلك فشحنة الأمل ليست فقط بتطوع بنعمرو، بل إيمانه ببراءة عمر، التي عبر عنها لوالديه، مرفوقة بابتسامة فيها الثقة والأمل والتضامن، وكثير من الحب والذي لا ترى نظيره إلا عند الوالدين.

آخر ما ختم به النقيب بنعمرو، هو التعبير عن إعجابه بردود عمر أمام قاضي التحقيق.. حيث قال لأم عمر: "ولدك تبارك الله عليه، هو أصلا محامي، فران وقاد بحومة."

فرمزية تطوع النقيب بنعمرو عندي أهم حتى من مرافعاته.

شكرا لكل هيئة الدفاع المتطوعة والتي حضرت اليوم من مدن مختلفة.

◆ خالد بكاري

# ملف العدد:
# الزوايا بالمغرب.. صناعة الولاء

قبل الدخول في صلب الملف، ستستعرض جريدة الطريق أهم المراحل التاريخية لنشوء الزاوية وأنواعها، كمدخل أساسي لفهم ذلك الارتباط الوثيق بين السلطة الحاكمة والزوايا، إن الزاوية عند المتصوفة موضع معد للعبادة والإيواء وإطعام الواردين والقاصدين، والمحتاجين والمجاهدين وطلبة العلم. وتعرف بأنها مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة تشبه كثيرا الدير المسيحي في القرون الوسطى، وهي بهذه الصفة، أشبه ما تكون بالخوانق أو الخانقات[جمع :الخانقاه وهي كلمة فارسية] في المشرق. كثيرا ما يتداخل مدلول اصطلاح ومضمون "الزاوية" مع اصطلاح "الرباط"، لتقاطع وتداخل أدوارهما الجهادية والتعبدية والإيوائية.

كما كانت الزاوية عبارة عن مدرسة قرآنية، وتنتشر في بلاد المغرب العربي وغرب أفريقيا، وعادة ما يكون فيها بركة صغيرة ونافورة ماء، كانت هذه المدارس هي أحد أهم سبل تعليم الأمور الدينية وبعض العلوم الأدبية، والتعليم فيها يتم بطريقة القراءة على يد الشيخ. وترتبط بالصوفية في الكثير من الأحيان.

ظهرت الزوايا في بلاد المغرب بعد القرن الخامس الهجري، وكانت تسمى في البداية بـ "دار الكرامة"، والزاوية من جهة أخرى هي مصطلح خاص بالمغاربة، يقابله لدى المشارقة "التكية"، ويقصد بها المكان الذي ينزوي فيه المريدون بحضرة مشايخ التصوف لأجل تنقية النفس وتهذيب السلوك".

وقد عرفت انتعاشا وتطورا كبيرين في المدلول والوظائف منذ القرن العاشر الهجري، حيث شهد هذا القرن امتداد أطماع النصارى إلى الثغور المغربية بعد تغلبهم على المسلمين في الأندلس. فالمغرب ومنذ القرن السادس عشر عرف توسع الفكر التصوفي الذي توج بظهور العديد من الزوايا التي إلى جانب ما كانت تلعبه من أدوار اجتماعية كانت لها أدوار سياسية، كالتحكيم والبث في النزاعات بين القبائل، وقد كان لها دور فعال في رفع لواء الجهاد، ضد الغزو الأيبيري الذي اكتسح معظم السواحل المغربية، وذلك بتوعية وتعبئة الناس للجهاد ضد العدو المسيحي، دفاعا عن وحدة الوطن وحماية للمعتقدات الدينية الإسلامية.

وقد ظهر نوع من التمازج بين الفقه والأفكار التي بدأت بالظهور في المغرب حول التصوف، والناتجة عن حياة الرباط المعتمدة على الزهد والانعزالية ومفاهيم الجهاد والتضحية من أجل نشر الدين. والملاحظ أن المؤرخين لم يكونوا يميزون في الاستعمال بين الرباط والزاوية، فقد يطلق المصطلحان على نفس المكان "الرباط والزاوية"، إن إطلاق الرباط على الزاوية والعكس قد تم في القرن الثالث عشر للميلاد وذلك اعتبارا لتداخل الوظائف، فيحدد الإطلاق بتغليب أحدهما على الآخر.

يعد المغرب من بين أكبر البلدان الإسلامية احتضانا لظاهرة الأضرحة والمزارات، فلا تكاد تجد تلا ولا سهلا ولا هضبة ولا قرية ولا مقبرة ولامدينة إلا وقد شيد فيها ضريح أو مزار، إلى الحد الذي وصف فيه المغرب ببلد المائة ألف ولي، ويقال بهذا الصدد : "إذا كانت بلاد المشرق هي بلاد الرسل والأنبياء، فإن بلاد المغرب هي أرض الصالحين والأولياء". هذه المقولة لم تولد من فراغ وإنما لها مبرراتها وبراهينها الواقعية والموضوعية المتمثلة أساسا في أركيولوجيا الزوايا والرباطات والأضرحة المنتشرة في كل أرجاء البلاد، حيث يوجد في المغرب حوالي 7090 ضريحا وزاوية (1496 زاوية)، تتوزع في أرجاء البلاد وينفق عليها ما يفوق 160 مليون درهم (حوالي16 مليون دولار)، وهي عبارة عن هبات ومنح تسلم للقائمين عليها من أجل تدبير شؤونها ورعايتها وخدمة السلطة السياسية وضمان الولاء لها، هذه الرعاية تستند إلى علاقة تاريخية ربطت حكام المغرب بشيوخ الزوايا الذين كانوا يلعبون أدوارا أساسية في الاستقرار السياسي والأمن الروحي بالبلد خدمة للسلطة الحاكمة.

عموما سنرى الوجه الآخر للزوايا الذي تحلقت حوله مجموعات من المتعبدين والنساك الذين انخرطوا تلقائيا في تنظيمات، ما لبثت أن تحولت إلى مؤسسات قائمة الذات، فصارت بذلك موضوع مواجهة وطرفا في الصراع، كما أضحت عاملا مهما في بلورة سياسة البلد في فترات عدة من تاريخ المغرب.

الطريق

# الزواج الكاثوليكي بين الدولة والزاوية

## استراتيجية الإحياء والاحتواء

• عبد المجيد مصدق

## الزوايا في المغرب أنواعها وأدوارها ووظائفها

أهم الزوايا المشهورة بالمغرب هي: الزاوية التيجانية، والزاوية الدلائية، والزاوية البوتشيشية، والزاوية الشادلية، والزاوية الوزانية، والزاوية الناصرية، والزاوية الدرقاوية، والزاوية العيساوية والزاوية الجزولية..

### الزاوية الدلائية

لا يعرف بالضبط متى وجدت زاوية الدلاء، غير أنه يمكن القول بأن تأسيسها كان في الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري، حوالي عام 974 هـ/1566 م، أسسها أبو بكر بن محمد المجاطي بن سعيد الدلائي بإشارة من شيخه أبي عمر القسطلي دفين روض العروس بمراكش.

وكانت عبارة عن حركة دينية علمية ثم حركة سياسية، جمعت بقايا قبائل صنهاجة وبالضبط أيت مجاط، وكان موطنهم ملوية، وانتقلوا خلال القرن الرابع عشر الهجري إلى منطقة أيت إديلا الواقعة غرب الأطلس المتوسط، حيث أسسها أحد أحفادهم، وهو أبو بكر المجاطي، وانقطع فيها للعبادة و الوعظ والإرشاد، فنمت الزاوية وتطورت خصوصا في عهد ابنه محمد أبي بكر الذي تولى قيادة الزاوية سنة 1612م. واقتصر اهتمام الدلائيين في بداية الأمر على الجانب العلمي والديني وحافظوا على ولائهم للدولة، ثم دخلوا المجال السياسي، حيث عارضوا الدولة العلوية، فقام المولى الرشيد بهدمها في معركة بطن الرمان سنة (1079 هـ/ 1668م )، ليقوم بعد ذلك بنفي الدلائيين عن زاويتهم إلى فاس وتلمسان وتشتيت علمائهم.

كان غياب السلطة المركزية مع سقوط آخر سلاطين الدولة السعدية، السبب الرئيسي الذي سيدفع الدلائية إلى التفكير في خوض المغامرة التاريخية الكبرى، إن الطموح "الدلائي" في التحول إلى سلطة مركزية (المخزن)، الذي بدأ يتحول مع "محمد الحاج" سيقتضي تحولا من نوع آخر: هو تكسير بنية "الزاوية" وبلورة بنية "الطريقة"، وهكذا سيتم التفكير في التملص من الخصوصيات المحلية (=القبيلة) لاختراق المجتمع بأكمله، هذا على الصعيد السياسي، أما على المستوى الأيديولوجي فسيتم التركيز على العلم. وعلى الرغم من ذلك فإن الدلائية ستفشل في تحقيق هذا التحول، وبالتالي فشلها أمام العلويين. ترجع أسباب هذا الإخفاق إلى عاملين: عامل مادي، ذلك أن الدلائية لم تستطع كسب العنصر العربي إلى جانبها، وعامل أيديولوجي يتمثل في كون الدلائية ركزت على العلم ولم تهتم بعنصر كان من الممكن أن يساهم في تحقيق هذا التحول، وهو الشرفاوية، أعمل السلطان الرشيد معاول الهدم في الزاويتين القديمة والحديثة، فظلت مهمشة منذ ذلك التاريخ حتى اليوم، حيث أن الآثار الذي لا زال الآن يوجد على بعد حوالي 8 كيلومترات من مركز الجماعة القروية أيت إسحاق بإقليم خنيفرة.

### الزاوية البودشيشية

تنتسب الطريقة القادرية البودشيشية إلى الشيخ عبد القادر الجيلالي، الذي ظهر في القرن الخامس الهجري أما لقب البودشيشية فقد اكتسبه بواسطة الشيخ على بن محمد الذي حمل لقب " سيدي علي بودشيش"، لكونه كان يطعم الناس أيام المجاعة طعام " الدشيشة" بزاويته، وتتالى عدة شيوخ على الطريقة القادرية البودشيشية في المغرب، ويوجد مقر الطريقة الرئيسي ببلدة "مداغ "، التي تبعد عن مدينة بركان بحوالي 15 كيلومتر، وفيها يعيش شيخ الطريقة الحالي حمزة بلعباس وقد تحولت هذه القرية الصغيرة إلى محج لأعداد كبيرة من المريدين مغاربة وأجانب.

ومن ضمن مميزاتها حسب اعتقاد وادعاء المريدين فإن الأمراض الباطنية يعالجها الشيخ حسب الطريقة والأذكار الفردية التي يتم القيام بها يوميا عند الاختلاء بالنفس أو عند الاجتماع بالجماعة بين العشاءين، وهو ما يسمى بالوظيفة، إلى جانب ما يتم ترديده من أذكار خاصة حيث تنفعل الروح مع الأحوال الربانية والتي هي طبيعة لذكر الله تعالى وفيضان محبته على القلب حسب اعتقادهم، وبذلك فإن الصوفية وأتباع الطريقة البودشيشية خاصة يعتبرون أنفسهم أنهم يصلون إلى تحقيق التوازن بين متطلبات النفس ومتطلبات الروح، والذي بدونه يختل الوجود الإنساني حسب ظنهم.

### زاوية الطريقة التيجانية

مؤسسها هو أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد سالم التيجاني، ولد بقرية "عين ماضي" في الجزائر عام 1737م، وتوفي بفاس عام 1815 م، تتلمذ على يد مشايخ عدة طرق صوفية منها الزاوية الوزانية، والزاوية الدرقاوية، عرف الشيخ التيجاني بطريقته المترفة في العيش، فكان يعد أتباعه بالغنى في الدنيا والجنة في الآخرة، مما شجع العديد من الأثرياء والتجار على الانضمام إليها. بعد فراره من الجزائر هاربا من اضطهاد الأتراك عام 1798م، فحل بفاس، أحاطه السلطان مولاي سليمان بعناية خاصة، حيث منحه دار كبيرة تسمى "دار المرآة"، وأنعم عليه بصلة.

فيما يخص طقوس الزاوية التيجانية، فمن خاصية هذه الزاوية أنه بمجرد الانتهاء من أداء صلاة العصر، تبدأ الأذكار والأوراد وتبدأ الوظيفة التيجانية بتلاوة الفاتحة ثم صلاة الفاتح، وجوهر

# الزواج الكاثوليكي بين الدولة والزاوية

## استراتيجية الإحياء والاحتواء

• عبد المجيد مصدق

الكمال، والتي تعتبر من مميزات الطريقة التيجانية.
ومراتب الطريقة التيجانية أربعة : المريد، المقدم، الخليفة، القطب.
والتيجانية زاوية بلا زعامة وبلا سماع، بخلاف العديد من الزوايا الصوفية، لا نجد للطريقة التيجانية شيخا معاصرا يتزعم المريدين، إذ لها شيخ واحد فقط هو مؤسسها، هذا ما يجعلها طريقة مغلقة بحيث لا يتم إدخال أي جديد فيها.

### الزاوية الناصرية

تأسست على يد الشيخ عمرو بن أحمد الأنصاري سنة 1575م، في قرية تمكروت الواقعة على بعد 18 كيلومترا شرق مدينة زاكورة، جنوب شرقي المغرب، وارتبط اسم الزاوية باسمه، ثم دعيت بالزاوية الحسينية نسبة إلى الشيخ عبد الله بن حسين الرقي، الذي خلف الشيخ المؤسس، قبل أن تسمى من جديد بالناصرية بتولية محمد بن ناصر. وبعد حياة من العز انتقلت الآن إلى الفقر والعوز، فقد كانت الزاوية ملاذا لأكثر من 1200 طالب علم، يحجون إليها كل عام، فقد أصبحت في السنوات الأخيرة ملجأ لعشرات المرضى النفسيين، الذين يختار بعضهم المكوث فيها لشهور طويلة، يصفها المؤرخون بـ «أم الزوايا» في المغرب، تخرّج منها عدد كبير من العلماء، وكان فيها أكثر من 10 آلاف مخطوطة، بقي منها الآن نحو 4 آلاف، بعد أن نقل العديد منها إلى الخزانة الحسنية والمكتبة الوطنية في العاصمة الرباط.

### الزاوية الوزانية "دار الضمانة"

تم تأسيسها على يد الشيخ الصوفي مولاي عبد الله الشريف الوزاني، خلال أواسط القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. فقد ذكر المتتبعون للزاوية الوزانية معطيات مهمة تفيد بكون من مميزات هذه الزاوية، أن تربية المريدين عند شيوخ هذه الزاوية كانت تتم بالنظر والهمة، لأن التربية بالاصطلاح اندثرت لضعف حال المريدين وقلة الرغبة في الدين، وكثرة الإقبال على الدنيا، وإعراض الناس عن الآخرة، كما يعتقدون. والتربية بالنظر والهمة والتي تدعى أيضاً بطريقة التبرك والتلقين، أو بطريقة الإفادة بالهمة والحال، هي في واقع الأمر طريق الزاوية الشاذلية نفسها، وتتلخص تعاليمها في «تلاوة الأوراد والأذكار والأحزاب، وتلاوة القرآن، والصلاة على النبي، كما تتميز هذه الطريقة بوسطيتها واعتدالها، وتمسكها بالكتاب والسنة، وبمراعاتها للمقاصد السامية للتصوف الإسلامي السُّني في عملها بمفهومي «التحلية» و«التخلية» : تحلية النفس بمكارم الأخلاق والفضائل وبذلك أمكن لها البقاء منتشرة في المغرب وغيره من بلدان العالم الإسلامي، منذ عهد الشيخ أبي الحسن الشاذلي (ت.656هـ/1268م) إلى يومنا هذا، ويماثل شيوخ الطريقة الوزانية في هذا النهج التربوي، معظم شيوخ الطرق الصوفية الشاذلية بالمغرب وغيره، ممن اقتفوا أثر الكتاب والسنة، والتزموا بمبادئ الإمام أبي الحسن الشاذلي، التي تتلخص في كون التصوف والحياة صنوان لا تعارض بينهما.
ولا بد من تسجيل الحماية الفرنسية للحاج عبد السلام الوزاني سنة 1884، كما الحماية البريطانية لفائدة الحاج بن سعيد المصلوحي سنة 1893، كنوع من تداخل الاستعمار والزاويتين الوزانية والمصلوحية.

### الزاوية الدرقاوية "الحسنية"

تعتبر من أهم الزوايا بمدينة فاس، وقد لعبت دورا مهما في الحياة السياسية وكانت تحظى باهتمام خاص من طرف السلطان مولاي الحسن، وهكذا يظهر أن الدرقاوية جاءت بأسس وشعارات جديدة، تتلخص الأولى في: إتباع الكتاب والسنة ومجانبة البدع، والإكثار من الذكر والاشتغال بالمذاكرة، وترك ما لا يعني، وإسقاط التدبير والاختيار مع التبري من الدعوى والاقتدار، وكسر النفس مع قطع الطمع من المخلوقين، هذا إضافة إلى ضرورة الشيخ في الصحبة حيث يجب أن يطاع في جميع الأحوال، فضلا عن ضرورة التفقه في الدين أما شعاراتها فأهمها: لبس الدرابيل والمرقعات والشواشي، والسؤال في الأسواق وغيرها، ووضع السبحة في العنق، والمشي بالحفا، وحمل قرب الماء في الأسواق، واتخاذ العصا وغيرها، ولأجل ذلك كان معتنقها يبدو رجلا متقشفا يرتدي مرقعة، ويتقلد سبحة ذات حبات كبيرة ملتفة حول عنقه، ويحمل عكازه، وعلى رأسه عمامته الخضراء الضخمة وهو يطوف متسولا.

> فسلوكيات درقاوة أو ما سمي شعبيا "هداوة" جلبت الانتقاد للطريقة من طرف الفقهاء والمتصوفة، بل أدى ذلك إلى محاكمة درقاوة محاكمة جماعية بتطوان سنة 1209هـ/ 1794م، وزج بالعديد منهم في السجن

وقد اشتهر درقاوة بنوع آخر من التجريد، وهو ما يسمى "العمارة"، وهي حلقة الذكر الجماعية التي لم تكن معروفة من قبل، والتي شكلت المدار الذي يدور عليه المذهب الدرقاوي، حيث اعتبرها شيخ الطريقة أسمى الوسائل التربوية التي لا غنى عنها، حتى إن المبتدئ والمتوسط والمنتهي وطالب التبرك، وذو المحبة، كلهم عنده (الدرقاوي) فيها سواء، أكانوا رجالا أم نساء شريطة تجنب الاختلاط.
وينحصر التجريد عند مولاي العربي الدرقاوي في أربع مسائل وهي: الفرار من الدنيا، والفرار من الناس، وإهمال الجسد، وإهمال البطن، لكن ليس معنى هذا أن الطريقة تدعو إلى الانزواء عن الحياة والخلق كما يبدو،
فسلوكيات درقاوة أو ما سمي شعبيا "هداوة" جلبت الانتقاد للطريقة من طرف الفقهاء والمتصوفة، بل أدى ذلك إلى محاكمة درقاوة محاكمة جماعية بتطوان سنة 1209هـ/ 1794م، وزج بالعديد منهم في السجن، ومع ذلك لم يتخل الدرقاويون عن مبدأ التجريد، لأن الهدف منه حسب شيوخ الطريقة هو تصفية الروح وهضم النفس والخروج من قيود العادة والطبع، فإن تحقق هذا الهدف، وتخلص الفقير من توهم وجود السوى، حتى عاد يأخذ ولا يؤخذ، ونظرا لهذه البساطة، يظهر أن التصوف الدرقاوي استهوى مختلف الفئات الاجتماعية في المغرب.

### الزاوية العيساوية

أسسها محمد بن عيسى المغربي الذي توفي بمدينة مكناس المغربية سنة 1524 ميلادي ودفن في مكناس، وأصل هذه الفرقة الصوفية يعود بدوره إلى محمد بن سليمان الجازولي، وتشتهر الطريقة العيساوية حاليًا باستعمالها للأمداح بصوت عال واستخدام الموسيقى في مسارات التنوير الروحاني وليس لها وزن كبير.

### الزاوية الشاذلية

تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي، يؤمن أصحابها بجملة الأفكار والمعتقدات الصوفية، وإن كانت تختلف عنها في سلوك المريد وطريقة تربيته، بالإضافة إلى اشتهارها بالذكر المفرد "الله" أو المضمر "هو"، يتسم أتباعها بالحماس في نشر طريقتهم في الوقت الحالي، حيث يمتلكون جمعية رسمية، ومجلة تصدر كل ثلاثة أشهر، وموقعًا على شبكة الإنترنت، وعددًا من الكتب والنشرات.

# الزواج الكاثوليكي بين الدولة والزاوية

## استراتيجية الإحياء والاحتواء

• عبد المجيد مصدق

## وظائف الزوايا وأدوارها

بتتبع هاته الأدوار جميعها، لعبت الزوايا في تاريخ المجتمع المغربي أدوارا دينية وثقافية وتأطيرية وسياسية، اختلف عمقها باختلاف الظروف المعطيات.

### 1- الوظيفة الدينية والاجتماعية

الوظيفة الدينية والعلمية للزاوية تتمثل في تحفيظ القرآن الكريم والقراءات، وتحفيظ الحديث وتدريس الفقه وأصوله، وإنشاء المكتبات، ولعل من أبرز الشواهد على ذلك هو المستوى الثقافي الذي خلفته هذه الزوايا في مختلف العصور، من مكتبات زاخرة بتراث نفيس، أما أهم وظيفة اجتماعية للزوايا فهي التكافل الاجتماعي، ويتعلق الأمر بنظام الإيواء والإطعام المرتبط بجهاز التصوف، وهو نظام تطوعي تكافلي مبني على التعامل بالمثل بكيفية توفر لكل مسافر من الصوفية إمكانية الاستفادة من بنية استقبال في أي مكان ذهب إليه، فانطلاق الزويا والتصوف في المغرب تحددت طريقته في اتجاه سني اعتمد على تعاليم المدرسة الجنيدية في صيغتها الغزالية، وبهذه الطرق الصوفية الدينية العتيدة، وبواسطة رجال الزوايا انتشر الإسلام في إفريقيا.

#### مرحلة التنظيم ودعم الشرفاوية

بدأت هذه المرحلة مع تصاعد نجم الشرفاء بتحالف القوة الروحية للشرفانية مع القوة الاجتماعية للزاوية، وقد شكلت هذه المرحلة فترة المرور من طور التنظيم الهيكلي للزاوية والطريقة، بالشكل الذي سمح للزاوية باستثمار قوتها الروحية والاجتماعية في تحريك الساحة السياسية، ويبرز ذلك جليا عند الرجوع إلى التقلبات السياسية التي عرفها المغرب في العصر الحديث مع السعديين والعلويين.

ويشكل النسب الشريف، العنصر الأكثر أهمية وحضورا في الثقافة المغربية. وقد كانت الزوايا والأولياء أكثر استئثارا بهذه الشريفية. فنافسوا من خلالها السلاطين من أجل الاستحواذ على وجدان الشعب. ويسجل المؤرخون على سبيل المثال تنافسا قويا بين شيخ الزاوية الكتانية وبين السلطان مولاي عبد الحفيظ؛ حيث كان رهانه للحصول على السلطة السياسية مرورا بكسب رمز الشريفية كقيمة رمزية ودينية عظيمة. إنها علاقة البيعة التي تؤسس لمفهوم الشرعية الدينية عند السلطة، غير أن المواجهة انتهت في النهاية بقتل الزعيم الكتاني سنة 1909.

> ويسجل المؤرخون على سبيل المثال تنافسا قويا بين شيخ الزاوية الكتانية وبين السلطان مولاي عبد الحفيظ؛ حيث كان رهانه للحصول على السلطة السياسية مرورا بكسب رمز الشريفية كقيمة رمزية ودينية عظيمة.

#### سلطة الكرامة في تثبيت الفعل الصوفي

مثلت الكرامة سلطة الولي على غيره وحجة مبينة لتزكية ولايته وصلاحه، وبفعل الأثر الإيجابي على الجماعة التي حملت على تصديقها، تنسب الكرامة واقعيتها المكتسبة من أدوار الصوفي المحققة، حسب اعتقاد المريدين، وبسبب حاجة الناس لتجاوز أزماتهم الذاتية أو تلك المتصلة بأوضاعهم المجتمعية.

لذلك ظلت الكرامة الصورة المعبرة عن مظاهر الأزمة وتطلعا "افتراضيا" لتجاوزها. وبالرغم من تعدد أوجه الكرامة وفعل أصحابها، تظل انعكاسا حقيقيا لأوضاع مجتمعية محققة، وإن عبر تعلق بها في صور مستحيلة الوقوع وبتواتر اعتقادي جعلها جزءا من ثقافة المجتمع.

### 2- الوظيفة السياسية تاريخيا

#### دور الجهاد

فالزاوية إلى جانب كونها عبارة عن مدارس تربوية وأخلاقية وتثقيفية، فقد كانت بمثابة حصون عسكرية تعمل على التسلح من أجل الجهاد في سبيل الله من الناحية العسكرية، وكذلك تسليح المجاهد من الناحية النفسية بتصحيح حقيقة الإيمان وتقوية اليقين في الله.

#### دور الصلح والتحكيم

إن من أهم الوظائف الزاوية قيامها بدور الصلح والتحكيم للفصل في مشاكل الأفراد والجماعات المحيطة بها، نظرا لما يرمز إليه شيخ الزاوية من تجسيد للحقيقة والحق والعدالة الدنيوية والأخروية. ويتدرج عمل شيخ الزاوية في هذا المجال من التوسط لتحقيق الصلح بين الأفراد إلى دور التوسط بين القبائل لحل مشاكلهم مع بعضهم البعض أو بين بعضهم مع ممثلي السلطة. بالرجوع إلى دراسات الانتروبولوجيين، نلاحظ أن وظيفة التحكيم كانت إحدى القضايا التي استوقفت نظرهم في وظائف الزاوية، مما جعلهم يعملون على تشخيصها وضبط آلياتها، إلى حد اعتبارها الوظيفة الأكثر فاعلية في أدوار الزاوية، باعتبار أثرها السياسي والمكاسب المترتبة عليه لفائدة الزاوية. فظاهريا، يبدو تحكيم المرابط شيئا مألوفا في المجتمع المغربي القائم على قاعدة التمايز القبلي، بسبب مكانة المرابط ضمن الهرم الاجتماعي العام وعدم ارتباطها الفعلي نظريا بأية مجموعة قبلية بعينها، كما أن دوره كان مرغوبا فيه من طرف كل مكونات هذا المجتمع. وتقوم وظيفة التحكيم على مبدأ المسالمة، الذي ميز نشاط الولي وقناعة المتنازعين في الاعتراف له بهذه الصفة، وهي الصفة التي منحته قدرا كبيرا من السلطة.

من الوظائف التي شكلت ركيزة أساسية في تمثل الزاوية للسلطة الرمزية، وظيفة الحرم أو المأمن المقدس. فقد مارست الزوايا على الدوام هذه الوظيفة الحساسة، حتى صارت في الاعتقاد الشعبي سلطة لا تنازعها في ممارستها أي سلطة أخرى مهما كان وزنها أو تأثيرها. وأثبتت الممارسة أن مجال الزاوية، وبالخصوص ضريح وليها وكيفما كان حجمها، ظل مجالا حرما وملاذا لكل معتصم مهما كانت دواعي التجائه أو اعتصامه حتى وإن كان جانيا أو مجنيا عليه، كما آوت الزاوية بحرمها أمن الناس من كل الطبقات.

# الزواج الكاثوليكي بين الدولة والزاوية

## استراتيجية الإحياء والاحتواء

• عبد المجيد مصدق

### مرحلة التنافس والتصادم مع السلطة

أهم عنصر أو عامل كان وراء هذا التنافس، اكتسابها نوعا من الاستقلال المادي ومن الإشعاع الروحي ما جعلها تنتصب كدولة داخل الدولة، بفضل استنادها على قاعدة اقتصادية عريضة متمثلة في أراض فلاحيه وعقارات تجارية ومنشآت سكنية، بالإضافة إلى ما يقدمه الزوار من هدايا وقرابين، وقد أصبحت تهدد بفعل وزنها المتنامي وانتشار طقوسها السلطة السياسية الحاكمة، وقد بدأت هذه المرحلة بالاضطهاد الذي تعرض له المتصوفة المغاربة والأندلسيون من طرف السلطة الموحدية، بسبب تخوفها من منافسة رمزية مؤسس الفكرة الموحدية أي المهدي، والذي يمكن اعتباره نموذجا للمزج الذي عرفه المتصوفة بين التصوف والعلم.

هذه المنافسة التي أصبحت تقوم بها الزوايا تجاه السلطة، بسبب تنامي قوتهم الرمزية وتزايد قوتهم الاجتماعية، فشكلت أكبر تهديد للسلطة السياسية، وذلك راجع لطبيعة تحركها في صلب المجتمع.

لقد شكلت الزوايا في مراحل تاريخية جبهة قوية معارضة للسلطة السياسية، خاصة وأنها استقطبت عددا هائلا من الأتباع، وهو الشيء الذي تعكسه الزاوية الدرقاوية التي أصبح لها أكثر من أربعين ألفا من الأتباع في ظرف وجيز (1785-1728)، ودخلت بذلك لعبة الاصطدامات السياسية، معتمدة في ذلك على المقدس والرأسمال الرمزي، ومن أهم تمرداتها واصطداماتها حين هزم مولاي العربي الدرقاوي (شيخ الزاوية الدرقاوية) المخزن سنة 1818، وقتل ابن السلطان، كما أن حجم الزاوية الدرقاوية وتغلغلها في الأوساط الاجتماعية كان يثير مخاوف السلطة، لاسيما حين بدأت تحتكر السلطة الدينية وتبرز كهيئة مدافعة عن التصوف والشرع، الأمر الذي جعل المخزن يفرض عليها بعض التضييق، وهو ما أدخلها في مشاحنات ظرفية معه، بلغت أوجها في أواخر عهد السلطان المولى سليمان حتى كادت تعصف بهذا الأخير، حيث تذكر بعض المصادر أن الشيخ العربي الدرقاوي وأتباعه سعوا إلى الإطاحة به ومبايعة المولى إبراهيم بن يزيد مكانه، لكن هذه الاختلافات سرعان ما تلاشت مع خلفه المولى عبد الرحمن بن هشام، الذي حاول استمالة الدرقاويين إلى جانبه، بل يظهر أنه هو نفسه أصبح درقاويا.

الأمر نفسه حصل بالنسبة للزاوية الشرادية التي ألحقت بالمولى سليمان هزيمة نكراء، عندما أعلن مناصرته لقبائل الرحامنة ضد قبائل الشراردة.

أما الزاوية الناصرية مثلا فلم تكن تهتم بالمجال السياسي إلا أن علاقتها لم تكن على ما يرام مع العلويين، حيث أخذت موقفا معاديا للدولة العلوية الفتية، حينما رفض شيوخها للخطبة بمبايعة الملوك العلويين على المنابر، غير أن هذا الموقف لم يكن من اعتبار سياسي بل نابعا من رغبة شيوخ الزاوية في عدم السقوط في البدعة، فالنسبة لهم الدعاء من المنبر بدعة، هذا الموقف أزم العلاقة بينهما، واستعمل معهم المولى الرشيد سياسة العصا والجزرة، لكنه في الأخير تركهم على حالهم.

> بفضل استنادها على قاعدة اقتصادية عريضة متمثلة في أراض فلاحيه وعقارات تجارية ومنشآت سكنية، بالإضافة إلى ما يقدمه الزوار من هدايا وقرابين، وقد أصبحت تهدد بفعل وزنها المتنامي وانتشار طقوسها السلطة السياسية الحاكمة

## الزوايا بين محاربة الاستعمار والعمالة له

كل المصادر المكتوبة والرواية الشفوية تؤكد على الدور الذي قامت به بعض الطرق الصوفية والزوايا لتسهيل عمليات الغزو والاحتلال، ثم صارت فيما بعد وسيلة في يد المستعمر بهدف استعباد المغاربة، وكانت الزاوية الكتانية هي التي تتزعم هذا التوجه في شخص زعيمها عبد الحي الكتاني. وقد أدرك الاستعمار الغربي لمنطقة شمال إفريقيا، ومنها المغرب، هذه الأهمية التي كانت تلعبها الزوايا في النسيج الاجتماعي القبلي، وفهم أنها كانت دائما مفتاح الاستقرار أو الفوضى، بالنظر إلى ذلك التداخل بين الزاوية والقبيلة. لذلك سعى منذ دخوله المنطقة إلى نسج تحالفات معها بوصفها الأداة الأكثر نجاعة لضمان استقرار الوضع لصالحه، وهو ما أدى إلى الانقسام داخل خريطة الزوايا بين الموالين للاحتلال وبين المدافعين عن حوزة البلدان في مواجهته.

لقد اهتمت الأنتروبولوجيا و الإثنوغرافيا الممهدة للاستعمار بجمع كل التفاصيل عن الزوايا بالمغرب، فلا يفوت الباحث الإثنوغرافي المرور بمكان لزاوية أو ضريح دون تسجيل ما يلاحظه، ومن ذلك ما قاله ادموند دوتي عن ضريح سيدي بليوط"، فما كان ضريحه يزيد عن بيت بائس يقوم بحراسته رجل يدعى بالمكناسي."

اهتم الإثنوغرافيون الاستعماريون بدراسة ذهنيات السكان من خلال التركيز على تحليل ودراسة أنماط التفكير السائدة لديهم، ومن بين هذه الأنماط الحديث عن الكرامات، وفي هذا الصدد يتحدث دوتي عن كرامات "سيدي بليوط"، ويقال كذلك أن لسيدي بليوط بركة التحكم في الحيوان، فقد كان إذا مشى تحيط به الأسود، ومنها جاء اسمه سيدي بليوط، الذي لا يعدو أن يكون تحريفا للاسم الفصيح (أبو الليوث). وتنسب إليه الخرافة "بركة الحضور في كل مكان"، وقد كان المستعمر الفرنسي واعيا بأهمية الزوايا ودورها الحاسم في تهدئة الأهالي، ويتبين هذا الوعي من خلال الاهتمام المبكر للإثنوغرافيين الفرنسيين بهذه الوظيفة، خاصة لدى ادموند دوتي. لقد اعتبروا الزوايا قوات اجتماعية يجب عليهم تسخيرها لصالح تغلغلهم في البلاد، وكانت وسائل الإغراء والاجتذاب المستعملة من طرف الغزاة، عبارة عن إعانات مالية وامتيازات أخرى مادية يذوب تحت تأثيرها الشعور الوطني للمستفيدين.

إن الأرضية والظروف كانت كلها مناسبة لاكتساح عالم الزوايا بالمغرب وجعله يدور في فلك فرنسا، إلى درجة أنه من ضمن عشرات الزوايا النشيطة لم تقف في وجه المستعمر سوى اثنتين، وهما زاوية ماء العينين في الجنوب، والزاوية البوعزاوية التي كانت وراء انتفاضة الشاوية عند دخول قوات الاحتلال إلى الدار البيضاء سنة 1907م. وهذا ما أكده جورج سبيلمان: "وفعلا لزمت التنظيمات الدينية الأخرى حيادا حذرا، وأكثر من ذلك لأن البعض منها، احتراما للقرارات الشريفة، وضعت نفوذها سرا رهن إشارتنا، وأذكر على الخصوص شرفاء وزان، وشيخ الدرقاويين، وزاوية أبي الجعد، والزاوية الكتانية التي أعيد فتحها تحت تأثير شيخها السيد عبد الحي الكتاني الذي خلف السيد محمد الكبير."

لقد استعان الفرنسيون في احتلال المغرب ببعض شيوخ الزوايا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كالدعم الذي قدمه الشيخ الحاج العربي الوزاني، والزاوية التيجانية، والزاوية الوزانية والدرقاوية مع بعض الاستثناءات، قبل أن تعود هذه الزوايا لتعلن عن قطيعتها مع الفرنسيين وتأييدها للمخزن مجددا، وتحارب من ثم إلى جانبه، مما جعل مواقف هذه الزوايا تكتسي طابعا من الغموض والثنائية الصارخة في التعاطي مع الخطر الأجنبي والتهديدات الخارجية.

لم يكن التعاون بين الطرق الصوفية والزوايا من جهة والسلطات الفرنسية وليد معاهدة الحماية أو أحد نتائجها، فقبل هذا التاريخ بأكثر من عقدين، لم يتردد زعماء بعض الطرق في الارتماء بين أحضان الحمايات الأجنبية، متملصين بذلك من سلطة المخزن ومعززين النفوذ الأجنبي بالمغرب، وأبرز نموذجين في هذا الصدد، هما الحاج عبد السلام الوزاني شيخ الزاوية الوزانية، الذي دخل تحت الحماية الفرنسية سنة 1884 ومن بعد، والحاج بنسعيد المصلوحي شيخ زاوية تمصلوحت الذي دخل تحت الحماية البريطانية سنة 1893.

وفي هذا المضمار، يقول بول أودينو: "منذ ذلك التاريخ لم يكن لفرنسا إلا الثناء تجاه الخدمات الجليلة التي قدمها لنا شرفاء وزان". ونتجت عن حماية شيخ الزاوية، كما كان منتظرا، تفاعلات عمت كثيرا من أتباع الزاوية المعنية، الذين بدورهم طلبوا ومنحوا الحماية الفرنسية. ومن جراء ذلك بدأت سمعة الزاوية الوزانية في التراجع لدى الرأي العام المغربي.

فقد ورد في تقرير للمفوضية الفرنسية بهذا الشأن بتاريخ 23 نونبر 1896م ما نصه: "إن الحماية الأجنبية الممنوحة لشرفاء وزان من سلالة المؤسسين لهذا التنظيم، والسلطة التي يمارسونها على أتباعهم، ساعدتا على زيادة مستمرة في صفوف المنتمين لهذه الزاوية، الذين بواسطتها يبتغون التخلص من ابتزازات المخزن، خاصة في أقاليم الرباط والغرب.

# الزواج الكاثوليكي بين الدولة والزاوية

## استراتيجية الإحياء والاحتواء

• عبد المجيد مصدق

## مرحلة الهدنة والتطبيع مع السلطة الحاكمة

في فترة من تاريخ المغرب كان المخزن يراهن بشدة على مدخل اقتطاع الأرض كآلية لتنفيذ مشروعه المخزني الرامي لضبط المجال وبسط السيطرة، وذلك للقيمة الاقتصادية والاجتماعية والرمزية التي تمتلكها الأراضي بالنسبة له وللقبائل، فاستعان بالزوايا، وهي استعانة بالمقدس الذي يمتلك قوة التأثير والتوقير، وذلك للعب دور الوساطة بينه وبين القبائل، ولتدبير الصراعات والقيام بدور التحكيم بخصوص النزاعات التي كانت تقوم حول حدود الأراضي أو المراعي، وهذا لسد الخصاص الذي يتركه ضعف تمثيل السلطة المخزنية أو غيابها. الاستعانة هاته لا بد وأن يقابلها اعتراف رسمي بنفوذها وتكليفها بالقيام بوظائف رسمية لصالحه، وهنا يتم تطبيع العلاقة بين الزاوية والمخزن بمنحها ظهائر التوقير والاحترام وإهدائها الأراضي، وإعفائها من أداء الضرائب، وأراضي الشرفاء والزوايا تشكل حاليا حضورا وازنا في التركيبة العقارية الفلاحية، وتحمل الزوايا بالمغرب رمزية دينية قوية مرتبطة بالنسب الشريف، ودعمت الحكم العلوي على اعتبار ترويجهم لتشاركهم مع السلطة الحاكمة في الأصول الشريفة نفسها، واستنادهم إلى الانتساب إلى آل البيت، وبقي هذا التحالف الضمني مستمرا إلى اليوم، وخاصة أن السلطة الحاكمة في المغرب تستند في حكمها على شرعية دينية أيضا. وهكذا أمكن للمخزن في المغرب أن ينسج تحالفات دائمة أو مؤقتة مع زوايا بعينها في فترات مختلفة، بهدف ضمان ولاء القبائل التي تتبع لها، وهو ما جعل النزاعات التي كانت تقوم بين بعض القبائل وبين المخزن نزاعات موازية مع الزوايا التي تنتمي إليها تلك القبائل. وفي نفس الوقت كان المخزن يعتمد على الزاوية الأكثر انتشارا في صفوف أوسع نطاق من القبائل، بحيث كان يختار جيشه من أبنائها لضمان الولاء. وكان ذلك التحالف يوفر للطرفين المكاسب التي يسعيان إليها، فالدولة تجد فيه سندا لمشروعيتها ووسيلة لفرض شوكتها، والزاوية تجد فيه وسيلة لبسط نفوذها على القبائل الأخرى والاستقواء عليها بالمخزن، وإطلاق يدها في الغصب.

## الطريقة التيجانية كأداة في الصراع الاقليمي بين المغرب والجزائر

كشف تصريح للخليفة العام للزاوية التيجانية، الشيخ علي التيجاني، حول رفض الزاوية محاولة السلطات المغربية استغلال الزاوية ومحاولة إلغاء المركز الروحي للزاوية التيجانية الموجود في الجزائر، عن حرب سرية بين السلطات الجزائرية والمغربية حول من له الحق في قيادة الحركة الصوفية في شمال إفريقيا.

تصدرت الطريقة الصوفية التيجانية طيلة سنوات التنافس السياسي والدبلوماسي بين المغرب والجزائر، وذلك بسبب الثقل الديني والسياسي الذي تتمتع به هذه الطريقة الدينية التي يتبعها الملايين في أفريقيا والعالم، حيث ولد مؤسسها وشيخها الشيخ أحمد التيجاني بالجزائر ثم تعلم واستقر وتوفي بالمغرب.

في البداية دعا المغرب المنتسبين للتيجانية جميعا إلى أول ملتقى دولي لهم بفاس عام 1986. واعترف زعماء الطائفة التيجانية في ذلك الملتقى بمغربية الصحراء وأدانوا موقف الجزائر منها.

ومن هنا سيتطور الصراع مع الجارة الجزائر التي فطنت إلى دور الزوايا كورقة روحية ودينية أولا لمواجهة مد حركة الإسلام السياسي داخليا، وثانيا كورقة وأداة لصراع النفوذ مع المغرب إقليميا وفي العمق الغربي لإفريقيا، وكذا بالنسبة لجالية الدولتين في أوربا، وخصوصا في فرنسا، ولا زال ملف هذه الزاوية ينبعث من رماده ليحلق في سماء العلاقة بين البلدين.

لذلك شكلت هذه الزاوية محط رهان سياسي بين كل من المغرب والجزائر خلال العقد الماضي، وظهرت الخلافات على السطح مرة أخرى وبشكل خاص في سنة 2006، ففي نونبر من تلك السنة نظمت الجزائر أول ملتقى دولي للطريقة التيجانية بمنطقة الأغواط القريبة من عين ماضي، التي تعد مسقط رأس أحمد التيجاني، مؤسس الطريقة، في محاولة لمزاحمة المغرب في المجال الديني بالمنطقة، ضمن إطار الصراع حول النفوذ في القارة الإفريقية، على خلفية النزاع الترابي حول الصحراء. وتعد الزاوية التيجانية أكثر الزوايا من حيث النفوذ السياسي، بيد أن حضورها الذي صار باهتا في المغرب بقي مجرد جسر لتقوية العلاقات المغربية الإفريقية، لأن الزاوية التيجانية لديها نفوذ أوسع في القارة السمراء، وخاصة في السينغال. ويعود الاهتمام بالزاوية التيجانية من طرف الدولة المغربية إلى القرن التاسع عشر، الذي شهد أهم محطات انتشار الطريقة في كل من المغرب والسينغال، بفضل حركة التنقل التي كان يقوم بها علماء ومريدو الطريقة وشيوخها بين السينغال والمغرب، حيث أصبحت زاوية فاس المقر الرسمي.

تتمتع الطرق الصوفية والزوايا المغربية بامتداد كبير في إفريقيا، وانتشارها في عديد الدول الإفريقية شكّل بمعية باقي الطرق والزوايا الصوفية المنتشرة في دول القارة السمراء، لوبيا ضاغطا لفائدة المغرب في القضايا السياسية الكبرى، لاسيما قضية الصحراء. فكلما تغير موقف من المواقف لدى بعض الدول الأفريقية من هذه القضية لفائدة الجزائر أو جبهة البوليساريو، كانت الجماعات الصوفية تضغط على حكوماتها لمراجعة موقفها ومناصرة المغرب. واستمرارا لهذا الصراع تلعب الزوايا دورا كبيرا وسط جالية البلدين وخصوصا بفرنسا، بغض النظر عن دورها في التأطير الديني للجالية المغربية المقيمة بالخارج في مواجهة المد الإسلام السياسي للجماعات.

## الدور السياسي للزاوية في الوقت الحالي

### دور مواجهة تنامي اليسار

انتهت الزاوية المغربية، عبر تطور وظائفها المختلفة، إلى أن تصبح مكونا ضروريا في توازن المجتمع المغربي في حقب تاريخية طويلة، فقد جمعت بين ما كان ينشده الناس من أمان وحاجيات العيش، وما تنشده السلطة من استقرار سياسي واجتماعي.

وهناك ملاحظة أساسية وهي أن تاريخ الزوايا ارتبط ارتباطا وثيقا بالتاريخ السياسي والاجتماعي للمغرب، على أساس أنها كانت قوة سياسية ضاغطة فرضت نفسها على النظام الحاكم، ونافسته في الكثير من رموز شرعيته الدينية والسياسية، تدعمها في ذلك قاعدة شعبية عريضة وتنظيمات متجذرة في عمق المجتمع، ولها امتياز رمزي كانت تستلهمه من الانتماء إلى آل البيت والنسب الشريف، لذلك عملت السلطة على احتوائها وتقزيمها، عبر مدها بالامتيازات المادية واستعمالها كأداة في خدمة الاستبداد إلى أن انتهت ووجدت نفسها بين أنياب السلطة الحاكمة. حيث أصبحت أغلب الزوايا لا تخفي ولائها للسلطة، وتقدم نفسها ومريديها كحلفاء للسلطة الحاكمة، يمكن أن تعتمد عليهم في مواجهة التيارات اليسارية والعلمانية.

ففي سنوات المواجهة مع الأحزاب الوطنية والتيارات اليسارية الراديكالية، في سبعينيات القرن الماضي وثمانينياته، وفي عز سنوات الجمر والرصاص، شجعت السلطة الإسلام القادم من الشرق الذي حمله معهم معارضون اسلاميون هاربون من أنظمتهم، ومولتهم السلطة، بتغاض عن إرهابهم وبتشجيع وتواطؤ معهم، وشجعت توزيع وانتشار وسائط الدعوة السلفية الوهابية، باستعمال أتباع الزوايا لمواجهة تصدير الثورة الإيرانية عام 1979، وللوقوف في وجه المد التحرري الذي كان يقوده شباب الجامعات والمعاهد العليا اليساري.

# الزواج الكاثوليكي بين الدولة والزاوية

## استراتيجية الإحياء والاحتواء

• عبد المجيد مصدق

إن الزوايا ليست وليدة ظروف سياسية حديثة، وإنما لها جذور ضاربة في التاريخ. فقد استمدت أغلب الأسر الملكية التي حكمت المغرب شرعيتها من دعم الزوايا والطرق الصوفية لها، وغالباً ما كان يبرز اعتماد السلطة على الزوايا في أثناء الأزمات، وظهر ذلك جليا أثناء مواجهة السلطة احتجاجات ما سمي بالربيع العربي، عندما لجأت إلى أكبر زاوية صوفية في المغرب، لحشد الدعم السياسي للسلطة لاحتواء غضب الشارع.

### الزاوية وحركة 20 فبراير

لقد نظم أتباع الزاوية البودشيشية الصوفية مسيرات مؤيدة للدستور الجديد في الدار البيضاء، وتصدت للأصوات الداعية للخروج إلى الشارع ومقاطعة الاستفتاء على الدستور في العام 2011 أو رفض الدستور، والتي كانت دعت إليها حركة 20 فبراير المعارضة، حين خرج مريدوها في مظاهرات حاشدة معلنة دعمها لتوجهات الحُكم، هذا الإنزال إلى الشارع كان هدفه الأساسي دعم السلطة وتمرير الدستور الممنوح. حيث دعت الزاوية التي يقودها الشيخ حمزة بن عباس إلى تنظيم ليلة دعاء وذكر بمناسبة المصادقة عليه. ويطرح هذا التحرك تساؤلات عدة حول تحول الطريقة البوتشيشية إلى العمل السياسي العلني، رغم أن رموز الطريقة ينفون ممارستهم للسياسة، فالناطق الرسمي باسمها قال إن الطريقة عبرت من خلال ما قامت به فقط عن موقف وطني. لكن الاستنتاج العام والسوابق التاريخية والمواقف السابقة واللاحقة تؤكد أن النظام قام بتسييس الزوايا والطرق الروحية من جديد، بعد أن خفت دورها في هذا المجال، وفق مصالحه وأهدافه، ودفع بها لمواجهة المعارضة الشعبية، وهي لعبة خطيرة غامر بها نظام الحكم، خصوصا وأن الزاوية البوتشيشية يصل أتباعها إلى الملايين، وهي تعكس موقفا متناقضا في خطاباتها من خلال هذا الدعم. فهي تعزل نفسها عن السياسية شكليا، مؤكدة أن دورها روحي كلما تطلب الأمر اتخاذ موقف مناهض للدولة، وتسارع إلى المشاركة الفعالة بالبيانات والتصريحات والمسيرات كلما تعلق الأمر بالتصفيق على أفعالها. وبهذا الانحياز الواضح يصعب القول بأن الطريقة البودشيشية طريقة مستقلة، بل إنها أداة تدخل في إطار الإستراتيجية الدينية التي اختارتها الدولة لمواجهة التيار السلفي بالتيار الصوفي وكل أشكال معارضة الحُكم اليسارية والديمقراطية. ولا يعد دعم الزاوية للدستور أول تدخل في السياسة من جانبها، فقد ندد شيخ الطريقة البوتشيشية في عام 2005 بأعداء الملكية. لقد وضعتها السلطة السياسية كقوة احتياطية قابلة للعب كل الأدوار والدسائس المعادية لتطلعات الشعب المغربي.

ومن أشهر المواقف المعروفة في السجل السياسي لهذه الزاوية، مشاركة البودشيشيين في تظاهرات مناوئة للمطالب التي رفعتها حركة 20 فبراير، ويمكن الإشارة كذلك إلى كون البودشيشية فتحت أبوابها لاستقطاب المئات من الشباب المغاربة الذين كانوا يعملون داخل التيار السلفي، حيث حاولت أن تبرز لهم محاسن التصوف، وكان هذا العمل في حد ذاته عملا ذا طبيعة سياسية، باعتبار أنه ينخرط في التوجه العام للدولة بتشجيع التيار الصوفي. بعد أن دمج الزاوية ضمن سياسته الدينية، وهو ما أعطى الانطباع بأنه يحاول بذلك احتواء تيارات الإسلام السياسي.

ظهر هذا الاحتواء حين خرج مريدو الزاوية في مظاهرات حاشدة مؤيدة لسلطة الحُكم وداعمة للإصلاحات الدستورية التي أفضت إلى دستور جديد في العام 2011 في سياق الربيع العربي، والذي شكلت حركة 20 فبراير وجهه المغربي. مع أنه غير مسموح للزوايا في المغرب بمزاولة أي نشاط سياسي ما دامت تعتبر حركات دينية تشتغل في مجال التصوف والروحيات.

فخلاصة القول من الوقائع اليومية لغليان الشارع المغربي في أكثر من 70 مدينة، في ذلك الوقت، أثبتت أن الدولة لا تستطيع مواجهة 20 فبراير ومكوناتها المتعددة، لذلك فإن الدفع بخروج مريدي الطريقة القادرية البوتشيشية جاء لإحداث نوع من التوازن في التظاهر بالشارع العام، وبالتالي أراد النظام الحاكم بعث رسالة واضحة من أن القوى الدينية ليست كلها مناهضة للمؤسسة الملكية، ويمكن القول بأن هذه السياسة، في الوقت الذي ساهمت في تقزيم بعض الزوايا التي كانت ذات نفوذ قوي في الماضي وإشعاع ديني على مستوى المنطقة، ساهمت أيضا بالمقابل في تضخيم مكانة زوايا أخرى لم يكن لها دور، في إطار خلق توازنات جديدة على مستوى خريطة الزوايا في المغرب، والهدف هو تحكم النظام في وجودها لتحقيق أهدافه منها.

> يصعب القول بأن الطريقة البودشيشية طريقة مستقلة، بل إنها أداة تدخل في إطار الإستراتيجية الدينية التي اختارتها الدولة لمواجهة التيار السلفي بالتيار الصوفي وكل أشكال معارضة الحُكم اليسارية والديمقراطية.

### ضرب السلفية بالزاوية

بعد تغول تفرعات التنظيمات المتطرفة والتكفيرية، وعلى إثر انخراط المغرب في الحرب على السلفية الجهادية، تبنت السلطة الحاكمة مشروع "إعادة هيكلة الحقل الديني" القائم على فكرة تشجيع الإسلام: التقليدي والصوفي، لمحاربة "الغلو الديني"، وقطع الطريق على الإسلام السياسي المتطرف. وتجلى اتجاه السلطة هذا بشكل واضح في تعيين متصوف وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية، والباقي في موقعه منذ عام 2003. وكذا الإغداق بالهبات المالية على الزوايا والطرق الصوفية، وتشجيع حضور أنشطتها في الإعلام الرسمي، وفي المجال العام، بتشجيع وتمويل مواسمها واحتفالاتها وطقوسها وندواتها ومؤتمراتها. تلتقي إذن سياسة السلطة القائمة على مبدأ "التحكم والتسلط"، مع تقاليد الطرق الصوفية القائمة على ثقافة "السمع والطاعة" الواجبين على المريد تجاه شيخه، وهي الثقافة التي تريد السلطة تكريسها في المجال السياسي، من خلال "طاعة ولي الأمر". ومن أجل نشر هذه الثقافة الصوفية التي تخدم مصلحة السلطة، فتقدم الدولة دعماً رسمياً للزوايا الصوفية، لتكريس الصوفية توجهاً دينياً في المجتمع، علاوة على إيجاد توازن سياسي داخل الحقل الديني، لوقف تمدد التيارات الإسلامية المحسوبة على الإسلام السياسي وتطورها. ومحاولة السلطة إعادة إحياء دور الزوايا كمن ينفخ روحا في جثة، لأن دورها وتأثيرها تراجع نتيجة ارتفاع منسوب درجة وعي فئات كبيرة من المجتمع، وصلتها بالواقع شبه منقطعة، ووجودها أصبح يغلب عليه الطابع الاحتفالي والطقوسي، وأغلب روادها من الفئات الميسورة التي تمارس طقوس التصوف، كنوع من الرياضة الروحية، بحثاً عن التطهير الروحي. وربما قد تكون هذه غاية السلطة من تشجيع مثل هذا النوع من الإسلام، الذي يشجع رواده على الابتعاد عن السياسة، والاهتمام بما هو روحي. لكن، الهدف المسكوت عنه هو مواجهة "الإسلام السياسي" الذي يجمع بين الدين والسياسة، ولا تسمح قوانين السلطة في المغرب لأي تيار ديني أو سياسي أن يجمع بينهما، مع استثناء سلطة الملك الذي يمنحه الدستور الممنوح حق الجمع بين السلطتين، الدينية والسياسية، تحت عنوان "إمارة المؤمنين".

تعد أدوار زوايا الصوفية كثيرة، فمنها الاجتماعي والديني، لكن عبر التاريخ يبقى الدور السياسي للزوايا الصوفية أساسيًا، فهي في النهاية تسعى وتساهم في تثبيت سلطة الدولة والنظام الحاكم، وهذا ما يفسر دعم ومساعدات الدولة للزوايا.

# الزواج الكاثوليكي بين الدولة والزاوية

## استراتيجية الإحياء والاحتواء

• عبد المجيد مصدق

**الزواج الكاثوليكي بين الدولة والزاوية.. استراتيجية الإحياء والاحتواء**

وفي ظل الانحرافات الاقتصادية، حظيت الزوايا -خاصة الكبرى منها- عبر التاريخ الطويل، بالرعاية والدعم الماليين، من خلال الامتيازات والهبات والإقطاعيات، ونال شيوخها وأتباعها امتيازات ضريبية وإقطاعات أرضية بظهائر ملكية، منذ أمد بعيد، مثل ظهير السلطان السعدي سنة 1586، الذي خص رؤساء تلك الزوايا بعائدات الضرائب الدينية (الزكاة والعشور)، وبـ (حكرة المنتوج الفلاحي للأرض)، واحترام طرق الزاوية. وقد جدد ظهير المولى إسماعيل سنة 1673 ولا زال السير على نفس النهج وإن بوسائل وصور أخرى، لكن الهدف هو تثبيت أركان السلطان الحاكمة، ثم اعتماد التصوّف كمحدد مركزي لإعادة هيكلة الحقل الديني. ومع الوقت تحولت الزوايا الصوفية إلى أجهزة إدارية تابعة لنظام الحكم تخدم مصالحها وتدافع عنها وتبررها أمام الناس وتسهم في تحقيق أهدافها وسياساتها، وتجعل من نفسها أداة ووسيلة للدفاع عن نظام الحُكم وتكريس شرعيته.

ولا يرى المنتسبون إلى هذه الزوايا الصوفية، أي تعارض بين معتقداتهم الدينية وولائهم للنظام المغربي وقوانينه، خاصة وأن النظام عمل على احتواء مشايخ الصوفية ومريديهم على اختلاف طرقهم، ومكّنهم من مناصب كبرى في الدولة من خلالها يقومون بدور مركزي في مختلف دواليبها.

ورغم انخفاض وزنها، تحولت الزاوية في مغرب اليوم إلى شبه حزب سياسي في خدمة "المخزن"، الذي يمدها بالمال كأوكسجين لاستمرارها، ويعتمد عليها في نشر الفكر الخرافي والاتكالي، وأصبحت مكونا من مكونات إيديولوجيا النظام

وتحظى برعايته خاصة، إذ تشرف لجنة في كل سنة على توزيع الهبات على شيوخها والقائمين عليها، إذ تتلقى دعما مالياً كبيرا من المال العام من قبل المخزن، على الرغم من أنها ليست حزباً أو نقابة أو جمعية قانونية. وعندما احتج السلفيون والحقوقيون على دعم المخزن للزاوية، أوصت النخبة المخزنية الزاوية وأتباعها بتأسيس مؤسسة ذات المنفعة العامة لتلقي الدعم بطرق شرعية.

ولمكانتها الكبيرة في صفوف المجتمع القروي، عملت الدولة على تطويعها خدمة لأغراضها السياسية، فمن خلالها تمكن لها أن تسيطر على مصدر ثقة كبير داخل هذا المجتمع الريفي مع طغيان الجهل.

فالزاوية عنصر ضمن الآليات التي تحافظ بها الملكية على هويتها الدينية، فضلا عن كونها اليد الطويلة للدولة، التي تسعى من خلالها إلى تثبيت سلطتها، وتشكل أحد الروافد الأساسية لجلب التأييد وإحياء الولاء الديني والروحي لـ "أمير المؤمنين" ضمن استراتيجية إعادة هيكلة الحقل الديني بالمغرب، وهي استراتيجية جديدة، بدأ الإعداد لها عقب اعتداءات 11 شتنبر 2001، لقد عملت سلطة الحُكم كل ما في وسعها لإدماج الصوفية في الحكم بهدف مواجهة ومحاربة ظاهرة إرهاب الإسلام السياسي ، وفي السنوات الأخيرة تقوى الاتجاه الداعي إلى العودة إلى الإسلام "الصوفي" الذي ارتبط بالطرق والزوايا الصوفية التي طبعت تاريخ المغرب الرسمي والشعبي على حد سواء، فأحداث 16 ماي 2003 الدموية استوجبت البحث عن حليف استراتيجي قديم/ جديد، هذا الحليف الجديد سيتمثل في الإسلام الصوفي الطُرقي، والذي يعد في الحقيقة مكونا من مكونات أيديولوجية النظام.

حظوظ نجاح هذه الاستراتيجية الجديدة أبعد من أن تكون أمرا مضمونا. فقد عمدت الدولة في سياق تنامي حركة الاحتجاجات الشعبية ضد اختياراتها الاقتصادية والأزمة السياسية، ومن أجل محاصرة الإسلام السياسي والحركات الأصولية المتطرفة، إلى تجديد الاهتمام بالزوايا والطرق الصوفية وإعادة إحياء أدوارها كخيار استراتيجي ورهان سياسي لتوظيفه في مواجهة الإسلام الأصولي المؤدلج والذي كانت الدولة هي من أدخلته لشرايين نسيج المجتمع المغربي، وبالتالي كانت مناسبة للزوايا لتعاود الانتشار من جديد بتصور جديد ووظائف غير التي كان يضطلع بها شيوخها إبان الفترة الاستعمارية والمراحل التاريخية السابقة. وهي عودة للأصول السلطانية للمخزن والذي كان يعتمد على الزوايا الأكثر انتشارا في صفوف أوسع نطاق من القبائل، بحيث يختار عناصر جيشه من أبنائها لضمان الولاء.

أن محاولات الدولة ضرب الإسلام السياسي بالإسلام الصوفي، يمر على حساب شعاراتٍ سياسية يرفعها، من قبيل التحديث والديمقراطية، فإعادة إحياء طقوس التصوف البالية هي عودة إلى تعطيل ملكة العقل والتفكير، وتشجيع لثقافة التقليد والخرافة. كما أن ثقافة "الشيخ والمريد" التي يقوم عليها الفكر الصوفي والزوايا، تكرس فكر الخنوع والخضوع، وتنبذ ممارسة النقد وقبول الرأي الأخر والاعتراض التي بدونها لا تستقيم أية ديمقراطية.

إن النظام السياسي يستغل الزوايا لأنها تاريخيا كانت تنعم بنوع من الاحترام والتقدير، نظرا لطبيعتها الدينية واندماجها التام في محيطها الاجتماعي والاقتصادي، وربما نظرا كذلك لطبيعة المجتمع المغربي كمجتمع جد محافظ وميال إلى التأملات ذات الطابع الميتافيزيقي، لكن أدوارها السياسية تظل مطلوبة للنظام لتمطيط وجوده السياسي والديني، لتبدو وكأنها مجرد أداة سياسية تعززها مبررات التقديس، وبسبب ذلك تطور الجهاز الصوفي لدرجة اعتبره البعض "مشروع دولة مثالية دائم الوجود" أعطى لدور الصوفي تشكيلا متجددا، وجعل من مؤسسته مكونا من مكونات الدولة، وهو ما أفضى في النهاية إلى حاجة الدولة لهذا الجهاز وحاجة هذا الأخير للدولة، وهي العلاقة التي تأصلت وتقوت حسب منظور كل طرف للآخر، فيما يبدو أنه تنافس مبطن حول المشروعية الرمزية لتمثل الزعامة داخل الجماعة، لكن في المقابل يمكن النظر إلى ذلك من زاوية تبادل الأدوار : فالجهاز الصوفي يكمل الأداء السياسي فيما يضمن هذا الأخير للثاني سبل الاستمرارية وآليات الامتداد من داخل غرفة الإنعاش.

ومع أن التحولات التاريخية أدت إلى تراجع أدوار الزوايا بعد أن افتقدت كثيرا من الوظائف التي كانت تضطلع بها في المجتمع التقليدي كمؤسسات تأطيرية للمجتمع؛ الوظائف التعليمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والقضائية والجهادية.. لم تعد من مجال عملها بفعل عملية التحديث التي طالت المجتمع، فان الدولة لا زالت تنفخ فيها روح العمالة لخدمتها، لأنه لم يجد إلى الآن بديلا يساعده لحماية وجوده، حيث لا تظهر قوة الزوايا إلا في المناسبات الطقوسية لطرقهم، وداخل المجتمع يكاد لا يوجد أي أثر لهم، ما قد يفسر بأن تأثير الزوايا والطرق عمليا قد انتهى أو يحتضر.

إن المكانة التي خص بها المجتمع تلك الزوايا على مدى تاريخها بغض النظر عن الجانبين الديني والسياسي، يعود جزء كبير منها إلى عدة عوامل كتناسل القصص والروايات الأسطورية التي كانت تثبت لهذا الولي أو ذاك خوارق وهمية، إن الكثير من الزوايا والقائمين على الأضرحة قد استغلوا نفوذهم للتمويه على العامة من الناس بكرامات مصطنعة تتبع الأولياء في أضرحتهم، مثلما نسبت إليهم في حياتهم عن حق أو باطل. إن الوجه القبيح للسلطة في زواجها الكاثوليكي مع الزوايا أنها تحمي السلطات العليا والسفلى الزوايا والأضرحة وتؤمم المواسم التي تنظم حولها، وتشرف عليها وتدعمها ماديا ومعنويا. بينما تعجز عن تأميم المدارس والمستشفيات ؟؟؟

> **ورغم انخفاض وزنها، تحولت الزاوية في مغرب اليوم إلى شبه حزب سياسي في خدمة "المخزن"، الذي يمدها بالمال كأوكسجين لاستمرارها، ويعتمد عليها في نشر الفكر الخرافي والاتكالي، وأصبحت مكونا من مكونات إيديولوجيا النظام وتحظى برعايته خاصة.**

# الزوايا.. وجه آخر للسلطة

**لقد كان مسعى العلم الاجتماعي وما يزال هو البحث في ما وراء الظواهر الاجتماعية لمعرفة علل ظهورها هنا أو هناك؛ لكن السوسيولوجيا تحديدا في سيرها نحو تشييد معرفة علمية ممكنة حول الواقع الاجتماعي للفاعلين الاجتماعيين وللجماعات البشرية لا تنفك تحثنا على ضرورة النبش في ذاك الذي لا يقض مضجع الباحثين، ألا وهو تلك الأمور التي يُنظَر إليها على أنها أمور بديهية ولا يستدعي القبض على ناصيتها أهمية تذكر. فالبديهي Le ça-va-de soi على حد تعبير السوسيولوجي الفرنسي بيير بورديو هو ما يصنع العلم.**

◆ فاطمة حلمي

في هذا المنحى ترتسم أهمية النبش فيما خفي وراء ظاهرة الزوايا بالمغرب لاعتبار أنها لا تحيد بدورها عن كونها في اعتقاد الكثيرين أمرا بديهيا من حيث ما تظهر عليه. وإذا ما التفتنا إلى تاريخ انبثاق هذه الظاهرة فيما بين ثنايا العالَم الاجتماعي وجدنا أنها لا تتحرك وفق منطق داخلي خاص؛ بل أن ثمة إرادة، أو تصميم الإرادة ورغبة الإرادة هما ما به تتقوم هذه الظاهرة وباستمرار. وهذا ما يجعل الحديث عن الزوايا بالمغرب حديثا لا يستقيم دون الإلمام بالكيفية التي تم بها ترسيخها حتى باتت تشكل ذاكرة جمعية دون منازع. وهذا الأمر يكشف أن ظاهرة الزوايا قد ترسخت بعمق يسبغ عليها صفة السلطوية لاعتبار أنها تشكلت على مسار خط زمني طويل، أي على مدى تاريخ كينونة شعب. وبالتالي فهذه الاستمرارية هي ما يمنحها القدرة على تثبيت سلطتها على الأفراد والجماعات. وبه نكون في صميم ما يطلق عليه العلم الاجتماعي اسم "الزمانية المقدسة" .

لعل ما نروم إثارته في هذه الورقة هو البعد السلطوي الذي تتسربل فيه وبه الزاوية كمؤسسة لصناعة الولاء التام للسلطة الحاكمة ومباركته. فالزوايا بالمغرب لعبت دورا كبيرا وأساسيا في منع تشكل أي سلطة موازية أو مناهضة لسلطة الدولة؛ إذ تقوم بترسيخ صيغ متعددة لمقاومة كل تغيير أو استبدال ممكن لسلطة التحكم الكائنة بأخرى محتملة. ويتم ذلك بواسطة تثبيت مقولات عصبها ديني بامتياز حيث القدرية هي علة الكينونة البشرية في جميع أبعادها وتمظهراتها. لذلك ولمثل هذه الغايات تعمل إرادة السلطة الحاكمة على تقوية إرادة الزوايا حينما تفسح لها المجال لتصير بأدوارها تلك كمؤسسة من جملة مؤسسات أخرى قادرة على التحكم واحتكار المعرفة والفعل بدل اتباعها؛ بل إنها تضطلع بمهمة تأمين ما هو روحي ونفسي في شكله الأكثر ابتذالا عندما تجعله سلعة هي التي تؤمنها عبر مظاهر وكيفيات طقوسية مثلما تؤمن المؤسسة الاقتصادية السلع المادية. لا ينبغي أن نستغرب هذه القوة والعمق اللذين تتزمن بهما الزوايا في الواقع المجتمعي وفي المخيال الاجتماعي للأفراد، والحال أن أساسها، كما تمت الإشارة إلى ذلك سلفا، هو أساس يرتكز إلى الدين الذي لطالما لجأ إليه الناس لتسيير العالم وظواهره. فالزاوية؛ باسم الشيخ والمريدين؛ تعمل على سحب الأفراد والجماعات نحو تصديق أنها هي التي تمتلك ديمومة قدسية تخول لها أن تفهم، تفسر وتقرر ثم ترغب بدلا عنهم بحجة أن مفاتيح المعنى بحوزتها أبا عن جد. وهنا ننعطف جهة التأكيد على أهمية العامل أو الشرط التاريخي-الزمني، فلعله بالرجوع إلى ذلك سنجد بأن الدين يشكل بوصلة توجه الكثيرين وتضمن لهم نوعا من الطمأنينة الروحية والنفسية بمنحهم ثمة معنى ثابت ونهائي لوجودهم ووجود الإنسان في كونيته على هذه الأرض.

في الواقع لا يمكن لمثل هذا الكلام إلا أن يشد الانتباه إلى مسألة جوهرية هي تلك التي تثار في سياق تناول قضية فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية. وهو الفصل الذي يتيح إمكانية تعدد مصادر السلطة ومنه تعدد أسس مشروعيتها أيضا.غير أن الزوايا هاهنا ليست إلا دعامة ترتكز عليها السلطة السياسية بما هي سراديب للتحكم غير المباشر للسلطة السياسية في الناس عبر السلطة الظاهرة والخفية للزاوية.. بذلك نكون أمام مصدر واحد للمشروعية وإن كنا نقف أمام سلطتين، فهما لا تسيران معا وجنبا لجنب، كما أنهما ليستا سلطتين متواجهتين؛ بل إن الأولى ليست إلا وجها أو ظلا خفيا للثانية.

إن منح الزوايا بعضا من سلطوية المؤسسة السياسية المتحكمة هو ضرب من التحديات تعلنه هذه الأخيرة لتبين عن مصادر قوتها. ونقصد هنا ما يسميه بيير بورديو بالرأسمال الرمزي الذي لا يقل أهمية عن الرساميل المادية التي تتقوم بها السلطة السياسية للدولة، أي المالية والعسكرية خصوصا.

يرتبط هذا الرأسمال الرمزي بتمثلات الأفراد عن معنى القداسة التي يتمتع بها الحاكم والتي تزكيها الزاوية عبر التمسك بالانتماء والتبعية لشيخ يتجذر نسبه في ما أطلقنا عليه بمعية علماء الاجتماع صفة الزمانية المقدسة أو القدسية. هذه القدسية التي تتراءى للمريدين في شيخهم هي ما يستند إليه هو ليرسخ ولاءهم للحاكم مبينا أن نسبه أكثر تجذرا في الزمانية المقدسة حيث يمتد إلى سلالة الأنبياء.

نفس الغاية.

هكذا تُكوّن الزوايا صورة واضحة عن استراتيجية السلطة الحاكمة فيما يخص مراكمة الرأسمال الرمزي، أي مقدار ما لها من السيادة والامتياز المشروعين اللذين يقويان شرعيتها في الحكم والتحكم والتصدي لرياح كل تغيير ممكن أيا كانت الجهة التي تهب منها هذه الرياح.

إن ريادة الزوايا في صناعة الولاء، ترسيخه ومباركة جميع صيغ وكيفيات ومظاهر الطاعة للسلطة السياسية الحاكمة ليست نتيجة حتمية سببية، فالحديث عن ظاهرة الزوايا بالمغرب هو من باب الحديث عن ما هو فعل إنساني (مجال الظواهر الإنسانية) لا يستقيم فيه هذا القانون كما هو في مجال العلوم الفيزيائية؛ لذلك حري بنا الإقرار بأن الغاية من وراء رعاية وحماية استمرارية الزوايا هي في ارتباطها بسياق تاريخي-ثقافي خاص وبعينه وليدة إرادة سياسية. هذه الارادة السياسية هي التي تمنح للزوايا الشرعية في التواجد بين ثنايا الواقع الاجتماعي وذلك لكي تصنع لها نوعا من الولاء يقوي سيادتها وسلطها التحكمية.

بهذا يكون لكل زاوية نهج خاص يميزها، ويتعلق الأمر باختلاف الكيفية التي تعرض بها كل واحدة ذاتها؛ غير أن هذا الاختلاف الذي يتجسد في ما هو طقوسي على كثرة مظاهره، يصب في استراتيجية موحدة تسعى إلى بلوغ لتكون أكثر تحكما ولتمنح لنفسها الشرعية من صلب مشروعية الزاوية كمؤسسة هي الساهرة على بقائها وحمايتها وحراسة استمراريتها وتقوية سبل تبعية الأفراد والجماعات وولائهم لها. وهنا يكمن الدور المهم والعميق للزوايا

# الزوايا بالمغرب: السياسة والدين وبناء الدولة

ليس الغرض من هذه المساهمة استحضار الوظائف الدينية والسياسية لحركة الزوايا بالمغرب بإسهاب، ولا وصف التنظيمات الطرقية بشكل دقيق، وإنّما الهدف هو تتبع تأثيرات بعض الزوايا الكبيرة من الناحية السياسية والإيديولوجية داخل مؤسسة السلطة، وذلك من خلال الإشارة للأسباب المتحكمة في اختلاف توجهات السلاطين في التعاطي معها.

ومن بين المسائل التي استوقفتنا ودفعتنا لدراسة هذا الموضوع سببين، الأول ذاتي والثاني موضوعي.

- السبب الذاتي: تمثل في سلوك الزوايا الاجتماعي وقدرة بعضها على لف أوسع عدد ممكن من المواطنين وقدراتهم على التعبئة الشعبية لمصلحة المخزن في آخر المطاف، وامتصاص السلوك "السلبي" الطبقي وتحويله إلى سلوك "إيجابي" مخزني على حد تصورهم، والدور الذي يلعبه الإسلام السياسي في تحديد التوجيهات المخزنية الحالية والمهام المطروحة على قوى التغيير.

- السبب الموضوعي : من خلال الاطلاع على عدد كبير من الكتب التي تناولت الزاوية، لاحظت أن معظمها اعتمد على الوصف بدون إبراز العلاقة الوطيدة مع الإسلام السياسي، ولهذا حاولت إجراء هذه الدراسة حتى تكون مدخلا لمن يشتغل على مثل هذه المواضيع.

وللتذكير فقد ازددت وترعرعت في أحضان زاوية سيد الهبري، والتي كانت طول حياتي وإلى سن 27 سنة، كان مقدمها جدي السي إدريس لمقدم. والاهتمام بالزوايا وعلاقتها مع الدولة، جاءني مبكرا لخاصية مهمة وهي دورها في بناء الدولة، وجزء منها في مقاومة المستعمر إذ كانت هاته الزاوية معروفة بوطنية قياديها ومقدميها. فرفضت التعاون مع المستعمر الفرنسي وقاومته ومنهم الأب والأعمام الذين رفعوا السلاح في منطقتهم بعين بني مطهر، والذين اختاروا هذه الزاوية كملجأ ديني، روحي، اجتماعي ووطني.

وسوف يتبين لنا من خلال هذا العمل أن الثابت عند كل هذه الزوايا هو العلاقة مع الدولة والمخزن وأن عامل التشكيل الطبقي لم يكن محددا أو حاسما أكثر من عامل الإصلاح والديني والاجتماعي في استمرار ترسخها في تاريخ المغرب وبين فئات الشعب.

◆ محمد بنطاهر

## الزوايا وعلاقتها بالحكم القائم

لعبت الزوايا في المغرب دورا مهما بالعلاقة مع العائلات الحاكمة بالمغرب واحتلت مكانة مهمة في تدبير الشؤون الدينية والعشائرية والقبيلة بطلب ودعم من الأسر الحاكمة وذلك منذ القرون الوسطى، حيث أن بعضها نشأ في القرن الخامس الهجري. فاستندت الأسر الحاكمة على شرعيتها الدينية واعتمدت عليها في حل المشاكل الاجتماعية والدينية وأشركتها مباشرة أو بشكل غير مباشر في تدبير السلطة المحلية، حسب احتياجاتها وحسب الأزمات التي تحدث بين القبائل، وحققت بتدخلها هدوءا خدم مشروعها بالاستيلاء على السلطة، واستمر العمل معها إلى يومنا هذا، ودعمت الحكم على اعتبار مشاركتها مع السلطة الحاكمة في الأصول الشريفة نفسها. ولعبت الزوايا دورا مهما في المشاكل والتمرد الذي تعرضت له الأسر الحاكمة والسلطات المنبثقة عنها، فحملت الزوايا سلاح الجهاد إذا احتاجت له الطبقات الحاكمة وكافحت لحمايتها، كما لجأت إلى أعمال اجتماعية وخيرية في زمن السلم لتتبنى خطط تربط فيها علاقة سلمية مع المواطنين، من خلال الدعم المالي والهبات التي تحصل عليها من طرف الناس المخالفين والمساندين لها، حيث راكمت أموالا طائلة، كان يوزع جزء منها على الزائرين والمحتاجين المغاربة والأجانب، حيث تستقبل الزوايا في مواسمها أفواجا عديدة من المعتكفين من الداخل والخارج، واستعملت كمأوي للمشردين والتائهين الذين يبحثون في الغالب عن غداء أو مكان للنوم، والمتبركين، وطالبي الخير والسائحين الدينين ولاحقا المستعمرين الذين مهدوا الطريق للاستعمار واحتلال البلاد. لم تكن الزوايا في نشأتها مهيكلة كما أصبحت بعضها عليه الآن، وسنشير إلى كيفية هيكلتها ولعبها دورا سياسيا واجتماعيا في التشكيلة الاجتماعية المغربية، فتحولت تارة إلى سند للسلطة الحاكمة وتارة إلى خصمها، وتحالفت مع العائلات الصاعدة التي كبرت وأصبحت مستولية على زمام الأمور. يقول عبد الله ستيتو (في مقاله القيم حول الزوايا) : "إذا كانت بلاد المشرق هي بلاد الرسل والأنبياء، فإن بلاد المغرب هي أرض الصالحين والأولياء". فالمغرب عرف ازدهارا متواصلا للزوايا، إذ ترعرع بكثرة نشاط الأولياء والصالحين، وانتشارهم في أرجاء المغرب بطقوسهم وعاداتهم ومواسمهم السنوية لم يقتصر على منطقة معينة. وقد أجمع الباحثون أن من أشهر الزوايا نجد الزاوية الدلائية والزاوية الناصرية والزاوية التيجانية وزاوية سيد الهبري بشرق المغرب والزاوية البودشيشية، و ذكرت دراسة أكاديمية مغربية أن عدد الزوايا والطرق الصوفية يجاوز 140 زاوية وطريقة في أنحاء المغرب برعاية حكومية، وقد تطورت مع الزمن من محاولة لضبط كل ما يتعلق بالمجال الديني إلى توظيف في مسعى لإيجاد توازنات سياسية. وتشير الدراسة إلى أن الزاوية الدينية الطريقة التيجانية تؤطر 43 زاوية، والطريقة القادرية البودشيشية حوالي 20 زاوية. ولا يمكن فهم تاريخ المغرب دون التطرق لها والدور الذي لعبته في مختلف المراحل والحقب بحيث لا يمكن فهم هذا الماضي دون استحضار هذا العامل الذي ظل حاضرا في خاصيات الزوايا والرابطات و شيوخ الزوايا والمتصوفين والطرقيين.

## الدور الديني للزوايا ووظيفتها السياسية منذ أمازيغ ما قبل الإسلام

عرف المغرب ظاهرة المزارات المقدسة قبل الفتح العربي الإسلامي، وعرف الأمازيغ بتعدد المزارات، منها من هو وثني، ومنها من هو يهودي ومنها من هو يسوعي إلى غير ذلك، وحسب إدوارد ميشو بلير(أنظر بحث محمد اسهيلي مفهوم الزاوية داخل المجتمع المغربي عند إدوارد ميشو بلير) شكل المغاربة منذ قرون وقبل الإسلام دينا مغربياً أكثر تسامحاً مع الثقافات الأخرى، وتعايشوا مع باقي الأديان السماوية وسمحوا لها في أن تشكل هويته الروحية المتعددة. (إلهام الطالبي: يهود ومسلمون مغاربة يتبركون من نفس الأولياء). واستمرت هذه العلاقة إلى يومنا هذا واستمر التعامل مع الأولياء والصالحين والمزارت بنفس الطقوس ونفس الارتباطات العقائدية، وتقدم لهم قربانا وهدايا مختلفة يتصرف فيها أشخاص وجماعات لها خصوصيتها وتأثيراتها وتحقق أو لا تحقق المقصود من زائريها والوافدين عليها. ويشرح محمد شقير في بحثه منافسة الزوايا للسلاطين، حيث أن احتدام التنافس السياسي بين السلطة المركزية والزوايا، وصل حد عمل كل من الطرفين على استمالة أكبر عدد من الناس من خلال انتهاج سياسة ما يمكن تسميته بـ "ملء الأفواه والبطون لاستقطاب العقول" ، حسب قوله، فعمل عدد من الملوك والسلاطين على الواجهة الاجتماعية لإطعام ذوي الحاجات واستقطابهم من أجل المحافظة أو الدفاع على سلطتهم ضد خصومهم وأعدائهم. فعلى سبيل المثال، عمل السلطان أبو عنان المريني على تأسيس عدد من الزوايا خاصة بفاس. وبإقامته لزوايا كثيرة بالمغرب، جاءت "بمعالم عمرانية ذات هندسة رقيقة، وآيات فنية يقل نظيرها، شبيهة بمدارس فاس التي تشهد بعظمة الدولة المرينية". (نفس المرجع).

> احتدام التنافس السياسي بين السلطة المركزية والزوايا، وصل حد عمل كل من الطرفين على استمالة أكبر عدد من الناس من خلال انتهاج سياسة ما يمكن تسميته بـ "ملء الأفواه والبطون لاستقطاب العقول"

# الزوايا بالمغرب: السياسة والدين وبناء الدولة

## الأهداف التاريخية والاجتماعية للزوايا ودورها في السلطة

• محمد بنطاهر

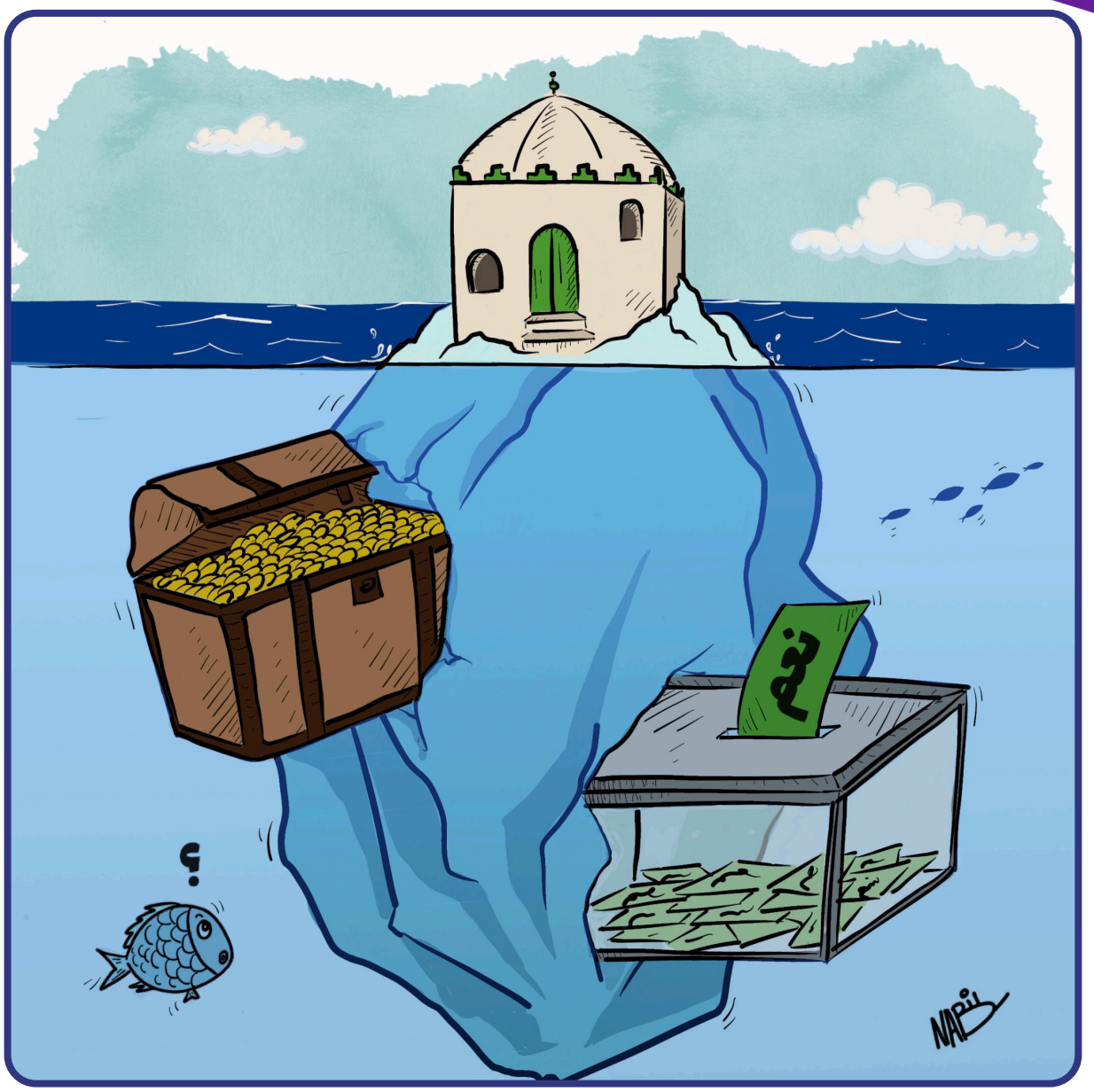


عرف المغرب فترات الاستقرار السياسي كما عرف فترات سياسية اتسمت بالصراع، أو الفراغ في السلطة، أو أزمات ناتجة عن الحالة الطبيعية والجفاف وقلة الغلة الفلاحية وانتشار الأوبئة والأمراض، واجتياح الحشرات كاجتياحات الجراد والقحط والطوفان أو الفيضانات، وغيرها من الكوارث التي كان لها تأثير كبير على السلطة وتدبيرها، وأصبح أساس المعاش لعدد من القبائل والعشائر واحتداد الصراع موضوع السلطة المركزية المخزنية، أو الإطاحة بها في مسلسل من الحقب التاريخية التي لعبت فيها الزوايا دورا مهما. في الجانب الآخر شكلت إطارًا لتوزيع النفوذ المخزني، حيث عملت الدولة على استمالة الزوايا، وتوطيد العلاقات مع شيوخها لتوسيع سلطتها على القبائل الأمازيغية أو العربية أو بلاد السيبة وعلى بسط سلطانها عليها، و كذلك منح شيوخ الزوايا نوعا من التوقير والاحترام، وهكذا استغلت نفوذها لتقليص بلاد السيبة، ولا ننسى تلك العلاقة المتوترة أحيانًا بينها وبين بعض قيادات الزوايا. إضافة إلى أن الزاوية تشكل نوعًا من الإسلام المحلي، بحيث من خلالها يتم استحضار الحياة الاجتماعية المحلية، ويختلط فيها الإسلام ببعض العادات والتقاليد الما ـ قبل إسلامية، وبالخصوص في المناطق الأمازيغية منها، وكما يعتقد ميشو بلير إضافة إلى أنها تشكل نوعًا من الإسلام المحلي، تعبر في نفس الوقت على نوعٍ من الوطنية الفطرية. كما أن الزاوية عند ميشو بلير تعتبر سلطة مركزية إلى جانب سلطة المخزن، وقاعدة تنظيمية للمجتمع، إلى جانب دورها الاقتصادي والسياسي. (محمد اسهيلي - حول مفهوم الزاوية عند الشعب المغربي..). ولا ننسى في هذا السياق العامل الخارجي والحروب ضد الأعداء ذوي الأهداف الاستعمارية، سواء مشرقية من العالم العربي أو الأوروبية خصوصا الأيبيرية أو غيرها. فتحركت نزعة الدفاع عن الوطن عند بعض الزوايا وأتباعهم للترصد للأخطار الخارجية المحدقة والتي تهدد الوحدة الوطنية وسلطتها القائمة.

### الزاوية الشاذلية وضعف السلطة السعدية والوطاسية

تعتبر الطريقة الشاذلية من أقوى الطرق في المغرب، إذ واكبت ابتداء من القرن ال 13 الميلادي ضعف السلطة المركزية المرينية والوطاسية وفتحت الباب على مصراعيه لصعود قبائل وزوايا أخرى في مواجهة الاعتداء المسيحي والإيبيري على أرض المغرب، فتبنتها الأوساط الشعبية كباقي الزوايا وأصبحت واسعة الانتشار بحضورها، ولها تأثير مستمر منذ تطور الطرق في المغرب، ووجد فيها المغاربة ما يقود جهادهم وصمودهم ضد الأعداء الخارجيين، وأصبح من الصعب التمييز بين ما كان مرتبطا بالعامل الديني وما كان سياسيا في توجهات هذه الزوايا.

### ظهور الطريقة الجازولية

تأسست الزاوية الجازولية على حساب الزاوية الشاذلية بعد اغتراب مؤسس الزاوية الشاذلية إلى مصر، وساهمت في صعود السعديين إلى مرتبة السلاطين و تكوين الدولة. كما جعلت من مراكش عاصمة السعديين ومركزا للطرق و للزوايا وأسسها زعيمها محمد بن عبد الرحمان بن أبي بكر الجزولي، المتوفى عام 1465م/870هـ والذي ساند قيام الإمارة السعدية وكان في حالات متعددة يلعب الدور المنوط بالسلطان، إذ لجأ المغاربة إليه للخروج من تبعات الهجمة الأيبيرية، بعد احتلال العديد من المدن والمناطق المغربية كأگادير (1405م)، ومليلية (1509م)، وسبتة (1415م) وغيرها. (ورد في سرد عبد الله ستيتو). وقد تبنت الزاوية كنمط للحكم أدلجة النسب الشريف، وتأسيس الشرعية السياسية على الانتماء إلى آل البيت، وسياسة الإعفاء من الضرائب ومغربة التصوف وجعله في وجه التصوف المشرقي المتمثل في القادرية كإيديولوجية لأتراك الجزائر، المنافسين للسعديين ومحاربة الطرق التي لا تنتمي إلى الجزولية أو الشاذلية (برومي عبد الوهاب - الطرق الصوفية في الريف الشرقي). وكان للمؤسس عدة مريدين وأتباع ولم يكونوا إصلاحيين كلهم، إذ شابت عملهم مجموعة من الشوائب ومنهم العزيز التباع، وهو من الرجال السبعة في مراكش (ت.1508م). والشيخ زروق (مات سنة 1519م)، والذي أسس الطريقة الزروقية. والشيخ مولاي عبد الله الشريف مؤسس الزاوية الوزانية، وهو من أحفاد بن مشيش، الذي ظهر بقيام الدولة العلوية بتافيلالت.

# الزوايا بالمغرب: السياسة والدين وبناء الدولة

• محمد بنطاهر

## الزوايا وسقوط الدولة السعدية : الزاوية الدلائية

تشكلت الزاوية الدلائية، يقول الكاتب محمد حجي في أطروحته القيمة سنة 1963 "الزاوية الدلائية ودورها الديني والسياسي (انظر كتب محمد حجي ص 12 طبعة 1987)" و حيث يرد في قراءة عباس زعري لكتابه، "ينتسب الدلائيون إلى قبيلة مجاط أحد فروع صنهاجة، وقد رفع أحد المؤرخين نسب الدلائيين إلى أبي بكر الصديق، ويعتبر"الشيخ أبو بكر بن محمد بن سعيد الدلائي، المؤسس الفعلي للزاوية الدلائية بتادلة عام (974ه/1566م)، بإشارة من شيخه أبي عمر القسطلي، وقد تضاربت الروايات حول موقع الزاوية بسبب تخريبها وطمس معالمها، وظل الغموض سيد الموقف إلى أن جاء الأستاذ محمد حجي، الذي أكد أن هناك زاويتين قديمة وحديثة لا تزال أطلالها قائمة الذات حتى اليوم، فالزاوية القديمة أسسها أبو بكر الدلائي، أما الزاوية الحديثة أسسها محمد الحاج الدلائي، والتي قامت عليها زاوية آيت إسحاق الحالية. وقد أسس الزاوية بالسير على نهج شيخه، من تعليم أصول الدين وإطعام الزوار وإكرامهم، وعرفت الزاوية انتشارا واسعا، وتمكنت من تأسيس إمارة كبيرة، وقد شهدت الزاوية الدلائية في بداية عهدها العصر الذهبي للسعديين، ثم أدركت زمن الفتنة والتدهور، غير أنها نظرا لمناعة موقعها في جبال الأطلس ولمكانة رجالها الصالحين، استطاعت أن تحتضن الثقافة الإسلامية في عصر عصفت فيه الاضطرابات بالمراكز العلمية التقليدية مثل فاس ومراكش. وعمرت الزاوية الدلائية زهاء قرن ظلت فيه مركز إشعاع للعلم والدين. وستتقوى الزاوية الدلائية بسقوط الدولة السعدية، حيث ستتمكن من الهيمنة على الأطلس المتوسط وفاس، والسيطرة على مناطق واسعة وعلى السواحل أيضا، كانت الزاوية الدلائية قوية، وهو ما سمح لها بعقد علاقات تجارة مع دول أجنبية، وسيبرز طموحها السياسي ومعارضتها لسلطة (المخزن) وهو ما جعل السلطان الرشيد يقوم بهدم الزاوية الدلائية القديمة والزاوية التي تفرعت عنها، وما زالت بقايا الزاويتين قائمة إلى يومنا هذا.

## الزوايا في فترة السلطة العلوية : صراعات الزوايا والسلطة

في العهد العلوي ظهرت بالمغرب ثلاث طرق صوفية متتابعة تطورت بسرعة كبيرة في جميع جهات المغرب، وهي الطريقة الناصرية و الطريقة الدرقاوية والطريقة التيجانية، ورغم كل ما لعبته من أدوار في المغرب كتفقيه الناس في أمور دينهم، وتلقينهم مفاهيم الطريقة، بجانب هذه المهام الدينية كانت الزاوية تقدم دروسا في الآداب والحكمة لتابعيها. أما في المناطق التي بها تمثيل ضعيف للسلطة المخزنية أو غياب لهذه السلطة، فإن الزوايا كانت تقوم فيها بالأدوار التحكيمية في النزاعات والخلافات بين القبائل، وكانت تملأ الفراغ السياسي الذي يخلفه غياب السلطة المخزنية وخاصة في المناطق الحدودية النائية، مثل مناطق الجنوب الشرقي؛ بحيث لعبت الزوايا هناك أدوارا طلائعية في تأطير السكان واستنهاضهم ضد الغزو الفرنسي للأراضي المغربية، كما كان للزاوية حضور هام في تحديد مجالات الرعي والانتجاع وتوزيع المياه في المناطق الصحراوية والمتصحرة، وبذلك فالزاوية تم الاعتراف بها كمكان مقدس، له حرمة لا يمكن انتهاكها بأي حال من الأحوال، فظلت قبلة للملهوفين، وملجأ آمنا للفارين من التسلط المخزني أو من العقوبات الثقيلة المفروضة عليهم، الشيء الذي جعل الزوايا ذات حساسية كبيرة بالنسبة إلى ممثلي المخزن، كالخلائف والعمال والقياد، الذين بدءوا يتقربون منها لاستغلالها في ضبط مجالاتهم القبلية، فظل شيخ الزاوية دوما آلية من آليات استمرار قياد المخزن في القيام بوظائفهم؛ لأنه يضفي عليهم نوعا من الشرعنة، ويزكيهم لدى السلطان وخليفته ما دام هؤلاء الصلحاء والمرابطون يتوفرون على تزكية دائمة من خلال ظهائر التوقير والاحترام، والتي كان يخصهم بها سلاطين وملوك الدولة المغربية من حين لآخر(أطروحة احمد البوزيدي لنيل دكتوراه الدولة - عبد الله ستيتو - المقال أعلاه)، إدراكا منهم للأدوار الحيوية التي تلعبها هذه المؤسسات بالنسبة إلى دعم السلطة المركزية في المجالات القبلية، التي كان من الصعب على المخزن اقتحامها، لولا هذه الزوايا التي أسهمت في تحقيق الوحدة السياسية للبلاد في ظل التواجد المخزني، وخاصة بعد التغلغل الأجنبي في المغرب، إلى درجة أن بعض شيوخ الزوايا تحولوا إلى قياد مخزنيين؛ كما كان الحال مع شيخ زاوية تازروالت ابن الحسين بن هاشم، الذي عينه السلطان مولاي الحسن قائدا على منطقة تازروالت عام 1886م/ 1304هـ، وبذلك استطاع التحكم في مجال قبلي ضخم وصعب المراس، يتكون من عدة قبائل غاية في الخطورة؛ مثل قبائل ماسا، وقبائل آيت باعمران، وقبائل مجاط، وأهل الساحل، وإيدا وطيط، وقبائل أخصاص، وغيرها، ونفس الشيء قام به السلطان المولى الحسن الأول تجاه الزاوية الناصرية عندما عين عليها الشيخ محمد الحنفي لمساعدته على ضبط الشؤون الدرعية.(انظر المرجع أعلاه - ع. ستيتو).

> فظل شيخ الزاوية دوما آلية من آليات استمرار قياد المخزن في القيام بوظائفهم؛ لأنه يضفي عليهم نوعا من الشرعنة، ويزكيهم لدى السلطان وخليفته ما دام هؤلاء الصلحاء والمرابطون يتوفرون على تزكية دائمة من خلال ظهائر التوقير والاحترام

## الزاوية التيجانية

تعتبر الزاوية التيجانية من الزوايا الصوفية أيضا الأكثر شهرة في المغرب والجزائر وبعض دول أفريقيا. تأسست على يد أبي العباس بن محمد بن المختار بن أحمد سالم التيجاني، الذي ولد بالجزائر وتوفي بالمغرب، وتلقى تعليما صوفيا ونشأ في حضرة الزاويا الدرقاوية والناصرية والوزانية، وهو ما أثر في تكوينه الفكري والديني مؤسسا بذلك طريقة تعرف انتشارا واسعا جدا اليوم. انتقل الشيخ التيجاني من الجزائر إلى المغرب فارا من اضطهاد الأتراك واستقر بفاس بالمغرب، وتلقى ترحيبا من السلطة الحاكمة وعناية خاصة من السلطان سليمان، وكان يعتبره ذا حظوة إلهية خاصة. أتى الشيخ أبو العباس التيجاني بأمور جديدة في نهجه الصوفي، وتجاوز طابع الزهد والتقشف الذي كان يعرف بها الزهاد والمتصوفة، بل إنه كان يؤمن بالعيش الرغيد في الدنيا والآخرة، وهو ما يفسر اتساع دائرة مريديه، حيث شملت التجار والأثرياء والراغبين في حياة الغنى والترف في الحياة الدنيا قبل الآخرة.

من بين أهم ما تؤمن به الطريقة التيجانية، وصول المريد إلى درجات عليا من الصفاء الروحي الذي يوصل إلى لقاء حسي ومادي مع النبي محمد حسب زعمهم، وهو ما تمكن من الوصول إليه الشيخ التيجاني في لقائه مع النبي محمد، والذي خصه وأتباعه بصلاة "الفاتح"، وعلى هذا الأساس أيضا يتم التشديد في شروط الانتساب إلى الطريقة التيجانية، لأن من يلتحق بها لا يحق له الخروج منها أو الالتحاق بطريق أخرى. تعتمد الطريقة التيجانية -كغيرها من الطرق الصوفية- على الذكر والصلاة وقراءة الأوراد، وتبدأ بعض طقوسها بعد صلاة العصر بجوهرة الكمال التي تميز هذه الطريقة، وذلك لأن مريدي هذه الطريقة يؤمنون بأن الشيخ التيجاني تلقاها شخصيا ومباشرة من الرسول محمد حسب قولهم، ولذلك فروح النبي تنزل خلال الاستغفار والتهليل وترديد "جوهرة الكلام". ثم تليها "صلاة الفاتح" وهي الصلاة التي يؤمن التيجانيون بأن الله أنزلها مع ملَك إلى الرسول محمد. (ع. استيتو نفس المقال). ظلت الزاوية التيجانية إلى يومنا هذا متمسكة بالأسس والمقومات الروحية الأولى التي جاءت مع الشيخ أحمد التيجاني، وركزت على تقديسه وتبجيله وتمجيده، وحافظت على طريقته في التلاوة والذكر والصلاة، ويعد المنتسبون للطريقة التيجانية اليوم بالملايين، ويتعدى وجودهم دولتي المغرب والجزائر إلى دول في أفريقيا وعدد من دول العالم.

# الزوايا بالمغرب: السياسة والدين وبناء الدولة

• محمد بنطاهر

## الزاوية الدرقاوية الهبرية

مؤسسها هو الحاج محمد الهبري العزاوي، وهو سيدي محمد بن قدور الوكيلي نسبة الى عبد الله بن عزة من آل البيت الإدريسي، دفين قسم بني خالد، وينقل الرواة أن الحاج محمد الهبري المذكور أخذ السر عن زاوية كركر التي كان يرأسها مولاي العربي الدرقاوي. وهذه الزاوية واقعة في الريف من قبيلة تمسمان، وفي ملحقة اعزيب ميضار إقليم الناظور. توجد هذه الزاوية بالضريوة، والتي هي من ملحقات أحفير على الحدود المغربية الجزائرية وقريبة من السعيدية. فالشرفاء أولاد سيدي عبد الله بن عزة كانوا معروفين بالبطولة وقيادة القبائل قيادة سياسية، وعلى الخصوص منهم أولاد المجدوب. ولكن الحاج محمد الهبري هذا يحكى عنه انه لما حفظ القرآن الكريم وشب كان يمارس الأوراد والأذكار إلى جانب الأوراد الخاصة بتسخير الجن، ويحكى عنه أيضا انه بلغ في ذلك مستوى ملحوظا. وقد ظهر له أثناء هذه الحياة في عالم الأوراد والجن، أن ينقطع إلى العبادة وممارسة تعاليم التصوف، فرحل إلى زاوية " كركر " المذكورة، وأخذ السر عن رئيسها. وأن هذا الأخير أمره بإنشاء زاوية في بني يزناسن وفتح أبواب الأسرار في وجوه المريدين. وعملا بهذا "الأمر الإجباري" أنشأ له زواية الضريوة ودعيت بزاوية الهبري أو الزاوية الدرقاوية. ولقد وقع إقبال عظيم على هذه الزاوية حتى أن الأغلبية الساحقة من بني يزناسن مرتبطة بزاوية الهبري، وأكثر البطون إقبالا عليها: التاكميون من بني وريمش، والورطاسيون، وبنو وشكراد، والجواهرة، وبنو بويعلى، وبنو موسى من بني عتيق.

> نفت فرنسا أحد شيوخ الزاوية الهبرية المعروف بوطنيته وهو الشيخ محمد الصغير، أثناء الحرب العالمية الثانية إلى أفلو بالجزائر، والسبب في ذلك تقول بعض المصادر أنه رفض التعاون مع الفرنسيين لإخضاع الأهالي التابعين لطريقته رغم الإغراءات، لكنه خاطب الضابط الفرنسي الذي حاوره في هذا الشأن بان مهمته تنحصر في إرشاد الناس إلى ذكر الله وعبادته والتمسك بالدين والقيم الروحية الأخلاقية.

نفت فرنسا أحد شيوخ الزاوية الهبرية المعروف بوطنيته وهو الشيخ محمد الصغير، أثناء الحرب العالمية الثانية إلى أفلو بالجزائر، والسبب في ذلك تقول بعض المصادر أنه رفض التعاون مع الفرنسيين لإخضاع الأهالي التابعين لطريقته رغم الإغراءات، لكنه خاطب الضابط الفرنسي الذي حاوره في هذا الشأن بان مهمته تنحصر في إرشاد الناس إلى ذكر الله وعبادته والتمسك بالدين والقيم الروحية الأخلاقية. فمكث في منفاه مدة تزيد على الأربع سنوات، ومات في 31 دجنبر 1939م ودفن في زاويته.

## الزاوية القادرية البودشيشية

بلدة "مداغ" التي لا تبعد عن مدينة بركان، تصبح مزارًا لمئات الآلاف من المريدين مع إطلالة ذكرى المولد النبوي، هنا تتربع إحدى أكبر الزوايا الدينية في المغرب، الزاوية القادرية البودشيشية، مريدون يأتون من كل حدب وصوب من داخل المغرب وأوروبا وأمريكا وآسيا. تنتسب الطريقة القادرية البودشيشية إلى الشيخ عبد القادر الجيلالي الذي عاش في القرن الخامس الهجري، وتمكنت الزاوية من الحفاظ على استمراريتها وتناقل المشيخة إلى يومنا هذا، وخاصة أنها تحولت من مهمتها الدعوية إلى المهمة التربوية، ومن بين شيوخها: أبو مدين بن المنور، والحاج العباس، الذي ورث عنه الشيخ حمزة مشيخة الزاوية تفعيلا لوصية الشيخ العباس. الشيخ حمزة القادري شيخ البودشيشية، تولى زعامتها عام 1972 بعد وفاة والده، مما جعل عبد السلام ياسين يغادر الطريقة غاضبا ويؤسس لاحقا جماعة العدل والإحسان، في نزاع على أحقية التولي. انتشرت الطريقة في عهد الشيخ حمزة داخل المغرب وخارجه، وظل على رأسها حتى أعلن عن وفاته في 17 يناير 2017 عن 95 عاما، إثر إصابته بنزلة برد قوية. تعد الزاوية البودشيشية من بين أشهر الزوايا بالمغرب وأقواها اليوم، وتمكنت من استقطاب آلاف المريدين من داخل المغرب وخارجه، ويغلب على طقوسها الجانب الروحي والصوفي. وتوجد الزاوية البودشيشية في شرق المغرب (قرب مداغ بإقليم بركان) ، ويحج إليها العديد من الباحثين عن لذة التصوف وأقصى درجات حب الله، والباحثين عن الاعتكاف الجماعي والتسبيح والتهليل، وقيام الليل، كما يحضرون حصص التربية الدينية التي يطغى عليها التوجه الصوفي (ع. ستيتو نفس المرجع). تستقطب الزاوية البودشيشية اليوم عدداً كبيراً من المريدين داخل المغرب، ولا يقتصر الأمر على فئات معينة، بل إنها تشمل الفئات الشعبية والطبقات الفقيرة، كما تستقطب الفئات المثقفة والطبقات الغنية، وهو ما يعني تحولا على مستوى مريدي الزوايا بالمغرب. وبالإضافة إلى المغاربة، فالزاوية البودشيشية تمكنت من استقطاب جنسيات أخرى بكثرة، إفريقية و أوروبية وأمريكية (دور المغني عبد الملك واللاعب بنعرفة وغيرهم من النجوم كان مهما)، وتوجد لديها فروع في دول خارجية مختلفة، ويعود هذا الإقبال على الزاوية البودشيشية إلى منحاها الصوفي الروحي، الذي يحقق للفرد صفاء الروح والتوازن النفسي - كما يقول بعض مريديها من الأجانب. ولذلك يحرصون على الزيارة السنوية للزاوية ولشيخها من أجل تلقي دروس الترقي الروحي من الشيخ، وتعلم كيفية دخول حضرة الله بالقلب والروح.

> الشيخ حمزة القادري شيخ البودشيشية، تولى زعامتها عام 1972 بعد وفاة والده، مما جعل عبد السلام ياسين يغادر الطريقة غاضبا ويؤسس لاحقا جماعة العدل والإحسان، في نزاع على أحقية التولي.

# الزوايا بالمغرب: السياسة والدين وبناء الدولة

• محمد بنطاهر

## وزن ونفوذ الزاوية القادرية البودشيشية

يشير الصحافي يحيى بن الطاهر في مقال موثق له في موقع إيلاف، أن الزوايا تلقى عناية خاصة من لدن النظام في المغرب بعد أن أدمجها ضمن سياسته الدينية، وهو ما أعطى الانطباع بأنه يحاول بذلك احتواء تيارات الإسلام السياسي. وقد كان هذا الاحتواء باديًا حين خرج مريدو الزاوية في مظاهرات حاشدة مؤيدة للنظام المغربي وداعمة للإصلاحات الدستورية التي أفضت إلى دستور جديد في العام 2011 إبان حراك 20 فبراير وجهه المغربي. مع أنه غير مسموح للزوايا في المغرب بمزاولة أي نشاط سياسي مباشر رغم قرابتها من التنظيمات السياسية كالعدل والإحسان والعدالة والتنمية ما دامت تعتبر حركات دينية تشتغل في مجال التصوف والروحيات. ويرى الباحث سعيد لكحل أن ثمة مصالح وخدمات متبادلة بين الزاوية والنظام السياسي في المغرب تصل إلى حد توفير خدمات لمريدي الزاوية تشمل التوظيفات والترقيات الإدارية والتدخل لدى القضاء والتعيينات والترقيات في الجيش. وقال الباحث لـ"إيلاف" إنه يمكن هنا أن نميز بين نوعين من المريدين: مريدون لديهم اجتذاب روحي للزاوية منهم مغاربة ومنهم أجانب، ويتوزعون بين أطر وأناس بسطاء، إذ يجدون في الزاوية غذاء روحياً لا يتسنى لهم إيجاده خارج الزاوية، سواء داخل المساجد أو في الزوايا الأخرى أو داخل تنظيمات دينية أخرى، وآخر متعلق بالزاوية وهو ما توفره الدولة للزاوية في قضاء مصالح إدارية أو مصالح في الوظيفة أو مصالح اقتصادية تجارية.". وتسعى الدولة، عبر دعمها للزاوية إلى توسيع القاعدة الشعبية وتوسيع المرتكزات الدينية عبر تشجيع الزوايا، ومن بينها الزاوية البودشيشية نظراً للخدمات التي تقدمها. وكانت الزاوية البودشيشية قد تصدت للأصوات الداعية للخروج إلى الشارع ومقاطعة الاستفتاء على الدستور في العام 2011 أو رفض الدستور، والتي كانت دعت إليها حركة 20 فبراير المعارضة، حين خرج مريدوها في مظاهرات حاشدة معلنة دعمها له.

كما سجل الباحث انه في مقابل الخدمات الدينية والسياسية التي تقدمها الزاوية البودشيشية للنظام، تقدم الدولة أيضًا خدمات للزاوية، فهناك نوع ما من الحصانة للأطر العليا للزاوية البودشيشية وخدمات على المستوى الإداري لصالح أعضاء الزاوية بناءً على تدخلات من قيادة الزاوية حيث تلبي طلباتهم سواء أكانت إدارية أو وظيفية.. ويضيف: "هناك خدمات أخرى على المستوى العسكري لأجل الترقية في الرتب العسكرية، حيث تتدخل الزاوية البودشيشية، وهذا كله يتم في ظل خدمات متبادلة بين الزاوية والدولة."

إلا أن أحد أحفاد شيخ الزاوية البودشيشية، كان قد سبق وأن نفى "كل ما يروج حول الطريقة القادرية البودشيشية من اتهامات لها بتلقيها دعمًا من السلطات الرسمية، والولايات المتحدة الأميركية، كما نفى ما يقال بشأن انتماء وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية إلى الزاوية، معتبرًا ذلك مجرد كلام فارغ، ولا يستند إلى أي أساس. إلا أن الدعم الأمريكي عبر نادية ياسين أو الاستحواذ على ثروة هائلة للزاوية من طرف عبد السلام ياسين، وتسجيل بعد ذلك لممتلكات الجماعة باسمه لازال موضع نقاش بعضه وصل إلى المحاكم.

وحسب تصريحات الباحث : "الدولة تُرَقِّي، وهذا يفتح شهية أطماع كثير من الناس الذين يرغبون في تحسين وضعياتهم الإدارية أو الاجتماعية، إذ يسلكون أقرب الطرق وأضمنها عبر الالتحاق بالزاوية البودشيشية، ومن تم تتوسط لهم لأجل تحسين أوضاعهم، في الوقت نفسه، تقدم الزاوية للدولة مريدين وأتباعًا طيعين لهم ولاء للنظام والدولة وللشيخ وللطريقة، ولاء مشتركٌ."

كل هذا يناقض تصريحات مسؤولي الزاوية رغم ثقل الحالات والأدلة من الذين غادروا الزاوية، إذ صرح الناطق الرسمي للزاوية البودشيشية لحسن السباعي الإدريسي نفي الاتهامات الموجهة للزاوية بالولاء للنظام المغربي، واعتبر" إننا أناس ضد استغلال الدين وتوظيفه من أجل الدنيا سواء كان توظيفًا من قبل العمل السياسي أو على المستوى الشخصي، لأنه يصل الدنيا بالدين، وأن هدفنا في الطريقة لا علاقة له بذلك، وأتحدى من يدّعي علينا أن يأتينا بأمثلة، لا أن يلقي الكلام على عواهنه، كل هذا الكلام لا أساس له من الصحة، حقيقة نمتلك مشتلاً مهمًا من الأطر الذين وصلوا إلى ما وصلوا إليه بناءً على مجهوداتهم الشخصية."

وتحفل الزاوية البودشيشية بالعديد من الأطر من النخبة المتعلمة التي وصلت إلى مراكز مهمة في الدولة والمصالح الخارجية للوزارات وغيرها.

يضيف السباعي: "غالبًا ما تطرح وسائل الإعلام علاقة الزاوية البودشيشية بالسياسة، لكن لا أحد يسأل كيف أن هذه الطريقة، رغم ضعف الإمكانيات والتشويش على عملها والافتراءات والكذب والادعاءات التي لا أساس لها من الصحة، تستطيع أن تجمع نخبة من الرجال والنساء من المغرب وخارجه ومن كافة المستويات الاجتماعية."

ويوضّح: "دائمًا ما شكلت السياسة هوسًا وكأنها، سواء عندنا أو لدى غيرنا، تتحكم في جميع الأمور. لنكن واضحين، كمواطنين من واجبنا أن نكون ملمين بجميع ما يروج حولنا، إلا أن التصوف هو منهاج مناقض للعمل السياسي، بمعنى أن التصوف، بحكم أنه منهاج تربوي روحي يبحث طالبه من خلاله على تطهير فريضته وعلى التوجه الخالص لله، وبهذه الصفة لا يكون طرفًا في لعبة سياسية تتطلب خططًا."! وأشار إلى أنه لا يمكن للصوفي أن يدخل في هذه المعادلات السياسية، معتبراً أنه من "حقنا كمغاربة أن يكون لنا رأي، فيما يتعلق بالاهتمام بالشأن العام من قبيل الوحدة الترابية للبلاد والمؤسسات التي تضمن استقرار المملكة. لدينا ثابت منظورنا إليه يتحكم فيه الشرع لا السياسة وهو الالتفاف حول جلالة الملك". ويخلص الباحث محمد ضريف إلى اعتبار الزاوية القادرية البودشيشية كما خلص إليه بعض المراقبين أنهم لا يستبعدون أن يكون نزول الزاوية البودشيشية بكل ثقلها في الشارع لمواجهة جماعة الشيخ ياسين إبان دستور 2011، ما هو إلا رسالة إلى عبد السلام ياسين، على اعتبار أنه قرر في يوم من الأيام أن "يرتد" على الزاوية التي كان أحد مريديها. لكن وبغض النظر عن أهداف ودوافع التحركات الأخيرة للزاوية البودشيشية فإن الشارع المغربي أصبح يتساءل عن إمكانية تحول الزاوية البودشيشية إلى حزب إداري جديد أو توافق الزاوية مع العدل والإحسان والمخزن؟ (محمد ضريف أنظر فاطمة العفاني: هل يساند الصوفي المغربي الدولة لمواجهة جماعة العدل والإحسان).

# الزوايا بالمغرب: السياسة والدين وبناء الدولة

• محمد بنطاهر

## الزوايا، الإسلام السياسي والإسلام الشعبي

الإسلام الشعبي الذي هو إسلام العامة والذي يقع في النقيض من أو في مواجهة الإسلام الرسمي، ومن بينه الإسلام السياسي والذي تلعب فيه الزوايا والرابطات والجماعات دورا مهما. فيجب التفريق إذن بشكل أساسي بين ما يسمى بالدين الرسمي الذي تمارسه السلطة بامارة المؤمنين أو باسم الأحزاب الإسلامية والدين الشعبي.

هناك صفات عامة بين نمطين من التدين، والذي يفرق بين هذين النمطين هو علم الاجتماع الديني بمساعدة الانتربولوجيا وعلم النفس، حتى يؤسس لمفهوم جديد يمكن أن يطلق عليه علم اجتماع الإسلام. فالإسلام شانه شان سائر الأديان الكبرى، شهد منذ تكوينه اختلافا في ممارسة الطقوس والشعائر وفي السلوك الديني عامة، وشكل محور ممارسة المؤيدين وأتباع الشيوخ في الزوايا. أما التدين الشعبي فقد ارتبط بالمقدس أكثر من ارتباطه بالدين الذي لا يمثل إلا بنية ضمن البنى المشكلة للدين. والتدين الشعبي كأحد أوجه هذا التدين ، تدين مضاد للعقلنة، يلجأ في كثير من طقوسه إلى السحر والخرافة وهو تدين انفعالي تحركه ظروف لحظية مرتبطة بالعقل الجمعي، وهو نفعي بالضرورة هدفه الحصول على مكاسب فردية غالبا ومرتبطة بالظروف المعاشية اليومية ، كدرء الخطر أو المرض وطلب المال آو البنون، وغيرها من الأمور المرتبطة بالفرد أو الجماعة الصغيرة، وهو لصيق بدور الزوايا والطرق. أما التدين الرسمي أو التدين العالِم فهو تدين معقلن إلى حد ما ومقنن ومرتبط بالمؤسسة الدينية الرسمية، والتي تسيسه غالباً وبذلك يكون أكثر براغماتية ونفوذا، وتتغير بعض أهدافه وبنوده وفقاً لمصالح استراتيجية على مستوى الجماعة الأكبر.

وقد يتنوع التدين الشعبي تبعاً لظروف نشأته والتأثيرات المرتبطة بالطائفة والوسط والطريقة، وقد يتغير مع التطور الذي يحجمه ويلغي الكثير من طقوسه وحتى شعبيته مما يؤدي إلى ذوبانه تدريجياً بالدين الرسمي، وهذا الثاني قد يعمد أو يستغل في مراحل تاريخية الدين الشعبي ويحاول أن يضبط مساره أو يجاريه بما يتلاءم مع المصلحة النفعية للدولة، كأن يستغل تأثيره الذي لايستهان به في محافل الانتخابات مثلاً، أو لتمرير قانون أو تحشيد سياسي وغيرها من الأمور المرتبطة بالسياسة غالباً. ومع تنوع التدين الشعبي وهو تنوع ليس جوهرياً ، أي أنه تنوع في التفاصيل أو الطقوس ومرجعياتها الطائفية ، فان التدين الرسمي قد يتنوع أيضا وقد ينقسم إلى كتل أو اتجاهات واضحة الملامح وتقودها منظومات فكرية مختلفة، فهناك التدين المرتبط بالمؤسسة الدينية الحاكمة، وهناك التدين الاحتجاجي المعارض الذي تمثله الحركات الدينية عموماً أو الأقليات الدينية، وهناك الإسلام المعلمن الذي تمثله فئات متعلمة تحمل مواقف مختلفة عن الدين ووظائفه ودوره في المجتمع. وهذا الانقسام بدوره قد يؤدي إلى انقسام التدين الشعبي من خلال اختلاف الطقوس وارتباطها بالطائفة ومن ثم من يمثلها من مرجعيات ومراكز إفتاء مرتبطة آو غير مرتبطة بالسلطة.

ويتبين لنا من خلال تتبع مظاهر ممارسة الدين الشعبي ونماذجه الواقعية أنه تدين احتفالي يتمتع بالمرح والتلقائية (طقوس الموالد والطهارة والدروشة وزيارة الأولياء). وهذه المنظومة من التدين بما يسمى بالتدين الشعبي لم تلبث أن اهتزت مع تطور المجتمع وانصهاره بقيم جديدة وتأثره مباشرة بالتحولات التي طرأت على المجتمعات الإسلامية نتيجة الاختراق الثقافي والاستعماري، وشيوع قيم جديدة مما أدى إلى انحسار مجال فاعليته وذوبان مؤسساته وفقدانه عددا من وظائفه، وفقدان منظومته الرمزية والطقسية، وفقدانها إلى الانسجام الذي يطبع ملامحها لتتحول إلى شتات.

وهذا لا يمنع من ظهور أنماط من التدين الشعبي وخصوصاً بفعل الأزمات السياسية أو الاقتصادية والحروب أو الغزو الثقافي، تحت ذريعة الحفاظ على الهوية ومقاومة الانسلاخ ومجابهة العولمة، ويتجلى هذا الظهور في استخدام السياسي للديني في ظل انعدام الأطر الاجتماعية والسياسية اللازمة لتاطير الجماعات التي لم تجد غير التدين الشعبي ملاذاً يحقق توازناً مفقوداً ويشعر بالاستقرار ولو وهميا، في ظل غياب مفهوم متكامل لمجتمع مدني متقدم.

## المخزن بين تدين الزوايا وسياسة العصا والجزرة

الإسلام السياسي في عمقه التاريخي الغالب هو علاقته مع السنة النبوية في تطبيقاتها السياسية وأبعادها التدبيرية لشؤون الجماعة البشرية التي كانت تعيش في الجزيرة العربية إبان الدعوة. إسلام ترعرع وانتشر بانتشار الزوايا والطرق والرابطات منذ القرن الخامس الهجري. خلاصة القول أنه إسلام ماضوي يلجأ إلى إدراج الإسلام الشعبي في حلبة اختباراته السياسية.

في المغرب منذ قرون تشكل المخزن كسلطة مركزية حاكمة. ويرمز تاريخيا منذ حكم السعديين إلى مخازن الضرائب العينية التي تستخلصها إدارة وأعوان السلطان من الأفراد ومن القبائل. والمخزن سياسيا مصطلح خاص بالمغرب يَدُلُّ على مؤسسة حكم تقليدي، يتألف من مؤسسة السلطان والبرجوازية الكمبرادورية والأعيان والملاكين الكبار للأراضي وزعماء القبائل الموالين للسلطان والقياد وكبار العسكريين ومُدراء ورؤساء الأمن، يترأسهم السلطان كحاكم مطلق السلطات بإمارة المؤمنين. هذا إضافة إلى شيوخ القبائل الذين أشركوا في السلطة أو ساهموا في استقرارها أو في سقوطها.

إلى حدود عام 1956، تاريخيا كان يسوس المغرب سلطان، ويحف حضرته بمخزن، وليس نمطا لملك تساعده حكومة. وهو في الواقع نسق في التسيير يعكس طبيعة العلاقة بصانع الكون، على اعتبار أن السلطان خليفة الله في الأرض. وتقوم القاعدة الأصلية المؤسسة للسلطة السياسية على البيعة كصيغة لإضفاء الشرعية على النظام السياسي، وتعبر في شكلها ومضمونها على فكرتي اليمين والعقد الواردة في الآية: "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله".

و"المخزن" في نظر ابن خلدون هو سلطان، قبيلة أو زاوية. في الحالة الأولى تغلب على الدولة خصائص القبيلة في تنظيماتها وسياستها وغاياتها كما كان الأمر أيام المرابطين والمرينيين وغيرهم. وفي الحالة الثانية تغلب صفات الزاوية كما عند الأدارسة والفاطميين والسعديين وبأحرى الدلائيين. وفي الحالتين المخزن تنظيم مضاف، يتلخص في جيش وديوان، (سيف وقلم). ومن يحمل هذا أو ذاك، الجندي والكاتب، فهو مخزني، وأسرته مخزنية متى توارث فيها المنصب. المخزني صاحب "كلمة"، يتلقاها ويبلغها، له مأمورية، يأمر ليطاع لأنه هو مأمور مطيع. المخزن بالتحصيل هو هاته البنية البشرية للدولة، في معناه الضيق، يتعلق الأمر بالمشتغلين في الجهاز الإداري أي الجيش والبيروقراطية. وهما العنصران الأساسيان المكونان له، وكل من يتقاضى أجرا من الخزينة السلطانية، وليس ممن يتم تعويضهم من مال الأحباس كأعضاء الإدارة الحضرية، والهيأة المكلفة بالحفاظ على الأمن في المدن، وإلى حد ما في القرى. أما في معناه الواسع فيشمل جميع الجماعات المشكلة لأعضاء المخزن الضيق، الخاصة وقبائل الكيش، الشرفاء والعلماء والأعيان والمرابطون المنتشرون في البوادي. وهم إجمالا من يحضون بالصلاة، أي الهدايا ويملكون ظهائر التوقير والاحترام أو بإمكانهم الحصول عليها، ومن يعتبرون أنفسهم جزءا من المخزن تأسيسا على إقراره لهم بفضائل لا تتوفر في العامة. بهذا التعريف نجد هذا الجهاز المخزني ذا طابع ازدواجي :

ـ أولا، أنه يستند إلى القوى المحلية ويفرض نفسه بشكل شبه مستديم على المناطق الخارجة عن سلطته بالاعتماد على قوى محلية كالزوايا والزعامات..

ـ ثانيا، كون المخزن يعتمد على قبيلة حاكمة أو إقطاعية تقترب من النموذج الاستبدادي الشرقي

# الزوايا بالمغرب: السياسة والدين وبناء الدولة

• محمد بنطاهر

مع نزعة إلى مراكمة الثروة مع حلفاء الحُكم؛ من فلاحين وكسابين وصناع وتجار، أصحاب مهن متميزة، وعلاقتهم بالإنتاج. أضف إلى ذلك جحافل من شرفاء وعلماء وشيوخ وقادة. وفوق هؤلاء و أولائك يوجد الحكام أهل الحل والعقد، أصحاب الأمر والكلمة. فهم إما عسكر(السيف) وإما كتاب (القلم) وإما قضاة (الشرع): الشرفاء والعلماء والشيوخ... هيئات متميزة، لكن تجمعهم ظاهرة، كونهم لا يباشرون الإنتاج. فهل من شريف فلاح أو عالم صانع إلا مضطرا أو زاهدا !! فإلى حدود القرن التاسع عشر ظل الجيش يرمز إلى النظام القديم ولم يحدث فيه أي تغيير، بينما شهد الجهاز البيروقراطي تطورا ملموسا، دون أن يصل به الأمر إلى درجة حصول قطيعة مع الماضي. لكن هذا القرن شهد تطورا في المراتب المرتبطة بالإدارة المركزية المتمثلة في "البنيقات" بشكل يمكن الحديث عن بيروقراطية وازنة، بسبب اتساع حجم العلاقات بين المغرب وأوربا. ودأب المتعاملون الفرنسيون معها في نهاية القرن إلى الإشارة إليها بعبارة "Administration maure".

في المغرب "الجديد" يتغير رأس النظام لكنه في العمق يحافظ على المنطق نفسه، إذ لا يدخل أي تغيير جوهري على المخزن، ذلك أن السمة الغالبة على الأنشطة الرسمية حافظت على تركة تقليدية بكاملها، وذلك بتتبع إرث السلف السلطاني. ويتركز ذلك أكثر عند تنظيم حفل البيعة. وتحاول المخزنية تجديد دوام تقليديتها بإشعال المنافسة بين الأجيال الجديدة، حول حب الولاء، إذ يتأكد عجز النخب عموما والنخبة المثقفة على الأخص و السياسية على وجه الخصوص وأوهامها عن مقاومة التطويع. أضف إلى هذا أن جمود الفعل السياسي التغييري وغرقه في الاستبداد هو أن المعارضة أضعف من المخزن. علما أن مشروع المخزن كارثي بتقليديته وتوجهه لخدمة برجوازية تابعة لمراكز القرار الامبريالي، وخصوصا، ولأنه في جوهره قمعي واستبدادي يقوم على الدولة التي تحشر أنفها في كل شيء.فعلى منوال المخزن التقليدي تشكلت أبرز تنظيمات وأحزاب الموالاة الإسلامو- ظلامية وأحزاب الموالاة الإدارية على حد سواء، في شكل "مخزنيات صغيرات" أو مملكات أو ممالك صغيرة، لكل واحدة منها ملكها أو زعيمها الخالد وأمراءها ونظامها الريعي والقبلي والعشائري والعائلي الخاص بها.

## الجماعات الإسلاموية.. الاستبداد بغلاف الشريعة

> جماعات الإسلام السياسي بالمغرب تريد إقامة الدولة الإسلامية وتطبيق الشريعة الإسلامية بمنطق تكفيري، وهذه وصفة للاستبداد والخراب طبعا، أما الاقتصاد المعقلن فلا يهم الإسلاميين، ونظرتهم الاقتصادية قريبة جدا من النموذج الرأسمالي بتوحش ليبراليته.

جماعات الإسلام السياسي بالمغرب تريد إقامة الدولة الإسلامية وتطبيق الشريعة الإسلامية بمنطق تكفيري، وهذه وصفة للاستبداد والخراب طبعا، أما الاقتصاد المعقلن فلا يهم الإسلاميين، ونظرتهم الاقتصادية قريبة جدا من النموذج الرأسمالي بتوحش ليبراليته. فالإسلامي سيستخرج لك من نصوص الإسلام كل ما يبتغيه خاطرك ويشتهيه قلبك: "الاشتراكية الإسلامية"، "الرأسمالية الإسلامية"، "التكافل الإسلامي"، "الميركانتيلية الإسلامية"، "البنك الإسلامي"، "الخيرية الإسلامية"، "الدينار الإسلامي"، "الغنائم الإسلامية"، "التجارة الإسلامية"، "إعادة توزيع الثروة الإسلامية"...إلخ. المطلوب منك هو فقط القبول بالدولة الإسلامية والشريعة الإسلامية والخضوع لخليفة المسلمين ثم التوكل على الله. ولكن الشيء المؤكد تأكيدا تاما هو أن الدولة الإسلامية دولة استبدادية طغيانية، لأنها قائمة على الطاعة العمياء للخليفة ما دام يقيم الصلاة، ولأن هدف الدولة الإسلامية هو نشر الإسلام ودحر الأديان الأخرى، ومنع كل فكرة أو كلمة أو سلوك أو كتاب أو فيلم يتعارض مع الإسلام. الدولة الإسلامية (من أجل حماية ونشر الإسلام) تتحكم في عقل المواطن وسمعه وبصره وتصرفاته وكلامه ولباسه ووقت أكله وشربه وما يأكله وما يشربه وما يسمعه وما يراه وما يقرأه. فهذا نظام استبدادي كامل.

ملحوظة: سيتم نشر هوامش المقالة في النسخة الالكترونية www.attarik.net

طريق التنوير

# التصوف.. بارود مرطب في أيادي مرتجفة

◆ ذ. رشيد العلوي

**للزوايا الصوفيَّة تاريخ عريق في المغرب القديم والحديث، بل ولبعضها باع طويل في مقاومة الاستبداد السيَّاسي، رغم أنها تتمتع باستبداد ديني لا حد له. ليست علاقة الزوايا بالقصر دوماً علاقة تكافؤيَّة ولا تصالحيَّة، فقد كان لبعض الزوايا دور هام في معارضة النِّظام في مراحل تاريخية مختلفة. يقول حمودي: "انتشرت الطريقة الدرقاويَّة، كما نعلم، في المدن والبوادي، وتجاوزت "المغرب الأقصى" إلى سائر بلدان الشمال الافريقي. وقد حركت معارضة شديدة في الأطلس المتوسط وضعت السُّلطة في مأزق" (الشيخ والمريد، ص 126).**

ظهر مفعول خطة إعادة هيكلة الحقل الدِّيني مع نضالات حركة 20 فبراير، حيث سارعت الزاوية البودشيشيَّة لحشد أنصارها في مسيرة البيضاء لدعم الدستور الجديد ولمواجهة جماعة العدل والإحسان التي ينحدر زعيمها ومؤسسها من نفس الزاوية. كان لافتاً اصطفاف كافة المنخرطين بهاته الزاوية في إطار السيَّاسة الدينيَّة الجديدة، في خانة المناهضين لحركة 20 فبراير. ورغم وجود استثناءات، فالأمر، كان متعلقاً بدواع مصلحيَّة وليس بمنظور نقدي للتسلُّط: يتعلق الأمر هنا بحضور أنصار المغراوي لبعض المظاهرات لغاية فتح دور القرآن التي أغلقتها وزارة الداخلية سنة 2003، ثم بعض الفقهاء المحتجين لتحسين أوضاعهم الاجتماعيَّة وقليل منهم من المرتبطين بتيَّارات إسلاميَّة ضمنهم نددوا بوصاية وزارة الأوقاف على المساجد، لكن بمجرد تحرك الآلية المخزنيَّة وفق ثنائيَّة العطايا والوعيد حتى تبخر ذلك.

المسألة الأكثر دلالةً، في هذا السيَّاق، هي أنه في ظل مظاهرات 20 فبراير ضد دستور 2011، لم تستطع أي من القوى السيَّاسيَّة حشد أنصارها في الشارع للدفاع عن الدستور رغم اصطفافها إلى جانب الملك. والقوة الوحيدة التي استطاعت القيام بهذا الدور هي الزاوية البودشيشيَّة التي حشدت أكثر من مائة ألف بالبيضاء في مسيرة ضخمة. الدرس الذي يجب استخلاصه هنا هو أنه في ظل فقدان أدوات الوساطة السيَّاسيَّة للملك (أحزاباً ونقابات وجمعيَّات) لمشروعيَّتها في شروط تنامي الكفاح الجماهيري فإن الخزَّان الاحتياطي للمشروعيَّة ستبحث عنه الملكيَّة في قوى دينيَّة أخرى محافِظة قادرة على لعب دور الطابور الخامس للدولة.

في مارس 2012 قدم القصر الملكي هِبات عدَّة لعدد من الأضرحة والزوايا لعل أهمها: هبة ملكيَّة لشرفاء ومريدي ضريح مولاي بوعزة (خنيفرة)، هبات لشرفاء ومريدي زاويتي سيدي حمزة وسيدي يحي أو يوسف (ميدلت)، شرفاء مكناس، زاوية مولاي بوسلهام (القنيطرة)، عدد من الأضرحة بالعرائش والقصر الكبير وطنجة، شرفاء زاوية سيدي لغليمي (سطات)، زاويتي الشيخ محمد بن محمد سالم، والشيخ محمد المامي (الداخلة)، الزاوية الوزانيَّة (تطوان)... وفي الحقيقة تشكل هذه الهبات دعماً مباشراً للطرق الصوفيَّة والأضرحة لمواصلة أنشطتها الدينيَّة العاديَّة وتنظيم مزاراتها، للقيام بأدوارها في عمليَّة إعادة الإنتاج، هذا ناهيك عن الدور "الاستشفائي" الذي تقوم به العديد من الأضرحة، ولعل أبرزها "بويا عمر" الذي قرَّر وزير الصحة إغلاقه سنة 2015 دون أن يوفر الإيواء لمرتاديه من المرضى النَّفسانيِّين والعقليِّين. فهل يمكن الاعتقاد أن هذه الهبات هي مجرد فعل خيري إحساني لا علاقة له بالشرعيَّة الدينيَّة لأمير المؤمنين؟ من المؤسف الاعتقاد أن الهبات الملكيَّة مجرد عطف وبركة يخصها الملك لرعاياه الصوفيِّين، بل إن في ذلك مصالح وخدمات متبادلة، والعطف هنا يأخذ بمعانيه السيَّاسيَّة كاملةً، أي كعطف محكوم بمصالح متبادلة، لهذا يجمل موليم العروسي كلامه في التداخل بين التصوف والسُّلطان في قوله: "يتلازم الدِّين والسيَّاسة في الأوقات الحرجة. فبالنسبة للملك يتراجع الدِّين في الأوقات الصعبة لصالح الإستراتيجية؛ بمعنى في القبَّة عندما أحس السُّلطان بالخطر طرح تساؤلاً: ماذا يمكنني أن أفعل؟ وهذا هو شأن الشيخ "الهسكوري" الذي درس بالقرويِّين وأراد أن يكون متصوفاً ويشيِّد زاويَّة. لكن منطق الدولة طغى على منطق التصوف. هذا أمر موجود منذ زمن على أساس أن هناك محاربين ويلزمهم مال ويجب أن يكونوا ملتزمين. فالمسألة واضحة، فالقُدسِي والدُنيوي يحملان بعداً آخر عندما نريد أن نغطي على مسائل محددة. " (جريدة الاتحاد الاشتراكي، رمضان 2016).

اخترق المغرب العديد من الدول الإفريقية للحفاظ على ما يسمى بالأمن الروحي للمملكة في إطار اتفاقات ثنائيَّة تهم علاقة المغرب ببعض البلدان، وقد وقع المغرب وجمهوريَّة الصومال الفيدراليَّة، يوم 20 يوليو 2016 بالرباط، على اتفاق للتعاون الإسلامي وتبادل التجارب والخبرات بهذا الشأن، حيث قال الوزير الصومالي إن هذه الاتفاقيَّة ستتيح لبلاده الاسترشاد بتجربة المغرب الرائِدة القائمة على الوسطيَّة والاعتدال والتسامح ومنهجيَّته الحكيمة في احتواء التطرُّف وتجفيف منابعه، مؤكداً حاجة جمهوريَّة الصومال الماسَّة إلى الاسترشاد بمنهجيَّته المتميزة والسَّير على منوالها، بالنَّظر إلى أن المغرب راكم تجربة "شاملة ومتميزة ليس في محاربة التطرف والإرهاب فحسب بل في الوقاية منه"، ما دفع بدول العالم إلى الإشادة بها والرغبة في استلهامها. وقد قال أحمد التوفيق وزير الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة، إن تدبير الشأن الدِّيني بالمغرب منوط بإمارة المؤمنين بمقتضى عقد البيعة باعتبارها "نظاماً سيَّاسيّاً دينيّاً مستمداً من كون الإسلام منذ نشأ، نشأ دينا ودولة". وأبرز التوفيق، في اللقاء المنظم في إطار "الملتقى الدبلوماسي" يوم الأربعاء 5 رجب 1437هـ (13 أبريل 2016) بالرباط، بحضور ممثلي السلك الدبلوماسي المعتمد بالمغرب، أن الملك هو رئيس الدولة وفي نفس الوقت أمير المؤمنين والساهر على "حفظ الكليَّات الخمس المتمثلة في حماية الدِّين والنفس والنِّظام العام والأموال والعرض"، مضيفاً أن المغرب الذي اندمج في اللُّغة الحديثة للسيَّاسة، نص في الفصل 41 من الدستور على أن الدِّين من اختصاص أمير المؤمنين "لأنه موضع اتفاق من لدن الأمة". كما أكد أن مشروعية إمارة المؤمنين في المغرب "تقوم على عقد مكتوب منذ قرون يسمى البيعة"، موضحا أن ضمان إمارة المؤمنين للدين يكون باحترام الكليات المذكورة التي تتحكم في ضمير الناس وتصورهم للعالم والحياة. لأن التوجه الإفريقي لسيَّاسة الملك متعدد الأبعاد، يستمد تميزه من الأواصر الجغرافية والروابط التاريخيَّة والأسانيد العلمية، مشيرا كرئيس منتدب لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، أن العديد من مشاريع الشراكة الاقتصاديَّة التي أطلقها الملك في المدة الأخيرة، مع بلدان في جنوبي الصحراء، تقترن في أذهان أهل تلك البلدان برصيد المغرب الدِّيني والعلمي والروحي المشترك، حيث يقر المصنفون بأن ما تم بناؤه عبر العصور، في مجال ذلك الرأسمال اللامادي، لا يقاس بنفع ولا يقدر بثمن، وهو باق صامد لكل حوادث الزمان، ومن ثمراته أن علاقات المغرب مع إفريقيا الغربيَّة على الخصوص، لها طابع شعبي مستدام، لا يتأثر بالظروف العابرة. وقد أبرز أن مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، "تستشرف تحقيق ربط فعال على صعيد القارة بين العلماء، والغاية المشتركة هي العمل على أن يحافظ لهذه الشعوب على إيمانها وعقليتها المحبة للسلم، وأن تصان لها، في نفس الوقت، ثقافتها المتميزة التي لم تخرجها يوما من توحيد الله والعمل بمكارم دينه، المبين بسنة رسوله الأكرم". وسجل أن أفاق مستقبل هذه المؤسسة، كما خطط لها الملك من خلال أهدافها في الظهير الشريف، ستتبلور في شراكة في الخبرة بين علماء المغرب وعلماء البلدان الإفريقية الراغبين في ذلك، وبالقدر المتاح لهم سياقا وقانونا، من أجل مقاربة شمولية لقيام الدِّين، بحمايته وتنمية خدماته: "لقد ابتكرتم، هذه الآليَّة، قبل كل شيء، بقصد نيل رضا الله في القيام بالأمانة الموضوعة على عاتقكم، كحام للملة والدِّين، وكراع للتاريخ الروحي المشترك بين المغرب وإفريقيا، وكغيور على الأمن والاستقرار في المنطقة"، لأن هذه الشراكة من خلال المؤسسة، ستمتد، إلى مجال التأطير العلمي، وذلك بإسهام العلماء في تبليغ مبني على الوسطيَّة، وبتنسيق الجهود لنشر فكرة أولويَّة دفع الفِتنة واستدامة الأمن والاستقرار كضرورة شرعيَّة قصوى..

في الاجتماع الثالث لأتباع الطريقة التيجانيَّة بمدينة فاس يوم الأربعاء 14 ماي 2014 وجه الملك بصفته أمير المؤمنين رسالة إلى المشاركين ألقاها وزير الأوقاف والشون الإسلاميَّة جاء فيها: "ننوه بما يجمع التيجانيِّين قاطِبةً، منذ تأسيس طريقتهم إلى اليوم، من مشاعر التعلق والوفاء لملك المغرب، بوصفه أميراً للمؤمنين وسيطا للنَّبي الأمين، مبادلين إياهم نفس الوفاء، مسبغين عليهم موصول الرعاية أينما كانوا، داعين إياهم أن يحافظوا على اتخاذ المغرب قبلة لهم في الورد والصدر". وفيها نتلمس المصلحة المتبادلة بين إمارة المؤمنين والطريقة التيجانيَّة في تعاون وثيق مبني على الحفاظ على الشرعيَّة الدينيَّة للإمارة ، مقابل الدعم السيَّاسي للطريقة.

خلاصة القول من استعراض هاته المقولات التي تؤطر الحقل الديني السلطاني، أن تثبيت دعائم السلطة يقوم على الشرعية الدينية، وضمان ولاء الزوايا وتداخل البعد السياسي بالديني بإدخال مفهوم البيعة لمجال القداسة، بحيث لا شرعية دينية تعلو على شرعية إمارة المؤمنين، فالريع المخزني يضخ إمكانيات استمرار الولاء.

**خلاصة القول من استعراض هاته المقولات التي تأطر الحقل الديني السلطاني، أن تثبيت دعائم السلطة يقوم على الشرعية الدينية، وضمان ولاء الزوايا وتداخل البعد السياسي بالديني بإدخال مفهوم البيعة لمجال القداسة، بحيث لا شرعية دينية تعلو على شرعية إمارة المؤمنين، فالريع المخزني يضخ إمكانيات استمرار الولاء.**

# الزوايا والأضرحة..
# البحث عن الخلاص المزيف

◆ جهاد الگنوني

لا شك أن العلوم الإنسانية، بما فيها العلوم النفسية والاجتماعية إلى جانب الفلسفة، ساهمت بقسط كبير في تعميق فهم الناس لذواتهم ومحيطهم وأشكال علاقتهم وكيفية عمل مؤسسات تنشئتهم، فالفلسفة على سبيل المثال لا الحصر، كبحث مستمر وتساؤل دائم للبديهيات التقليدية والثابتة وتحريض العقل على التفكير والتدبر وتدريبه على النقد والتجريد وعدم تقبل الجاهز من الأفكار والإيديولوجيات و الممارسات، فتحت المجال للعقل البشري للاكتشاف الواسع للمعرفة اليقينية والعقلية، بدءا من ذات الإنسان مرورا بمحيطه الاجتماعي إلى العالم المشترك، بفك ألغاز الطبيعة وتفسير قوانينها.

لقد جاءت الفلسفة لتؤطر وتوجه عملية التفكير ومهارتي التمحيص والفحص، وذلك من خلال كيفية طرح السؤال والقدرة على تجاوز طرح السؤال البسيط نفسه، والذي قد يعد قدرة من القدرات الفطرية المصاحبة للوعي الإنساني منذ الأزل قبل اكتشافه النار والصيد.. فالطفل في مراحله العمرية الأولى يستطيع أيضا طرح السؤال الوجودي المباشر بشكل عفوي وتلقائي خال من أي قاعدة أو قانون، مدفوعا بالرغبة في المعرفة والبحث عن جواب يقيني من قبيل " كيف وجدت وحضر كياني لهذا العالم" و قد يحصل على إجابة شافية وقد يرافقه فراغ الإجابة إلى مثواه الأخير.

من مهام التفكير الفلسفي العقلاني أيضا هو تكسير حاجز الصمت داخلنا وتحطيم بعض التمثلات الاجتماعية، وتبيان عيوبها وجوانب قصورها. لكن كيف يمكن تحقيق ذلك؟، وماذا لو لم تنجح العلوم الإنسانية التي اكتشفت حديثا في قهر سلطة الغول المتوحش داخلنا، ألا و هو الخوف من فراغ الإجابة أو عبثيتها، الخوف من المجهول والمستقبل، ومن العقاب واللعنة؟؟

لقد عمل الإنسان منذ الأزل على مقاومة الشعور بالخوف لديه، هذا الشعور الغريزي الذي يتقاسم مرارته مع الحيوان أيضا، بشتى الطرق وبمختلف الوسائل التي صنعها وابتكرها، لكنه عدو شرس له من القوة ما يمكنها أن تدمر الإنسان وتبتلعه ليتحول هذا العراك إلى صراع دائم مخلفا وراءه الكثير من المعاناة والألم. لذلك، وفي لحظة من لحظات تطور الفكر والكائن البشريين، لم يجد الإنسان له منفذا سوى في التعبيرات الفنية وداخل حبكة الأساطير والقصص الخيالية الخرافية وبين التفسيرات الدينية والأطروحات الفلسفية،

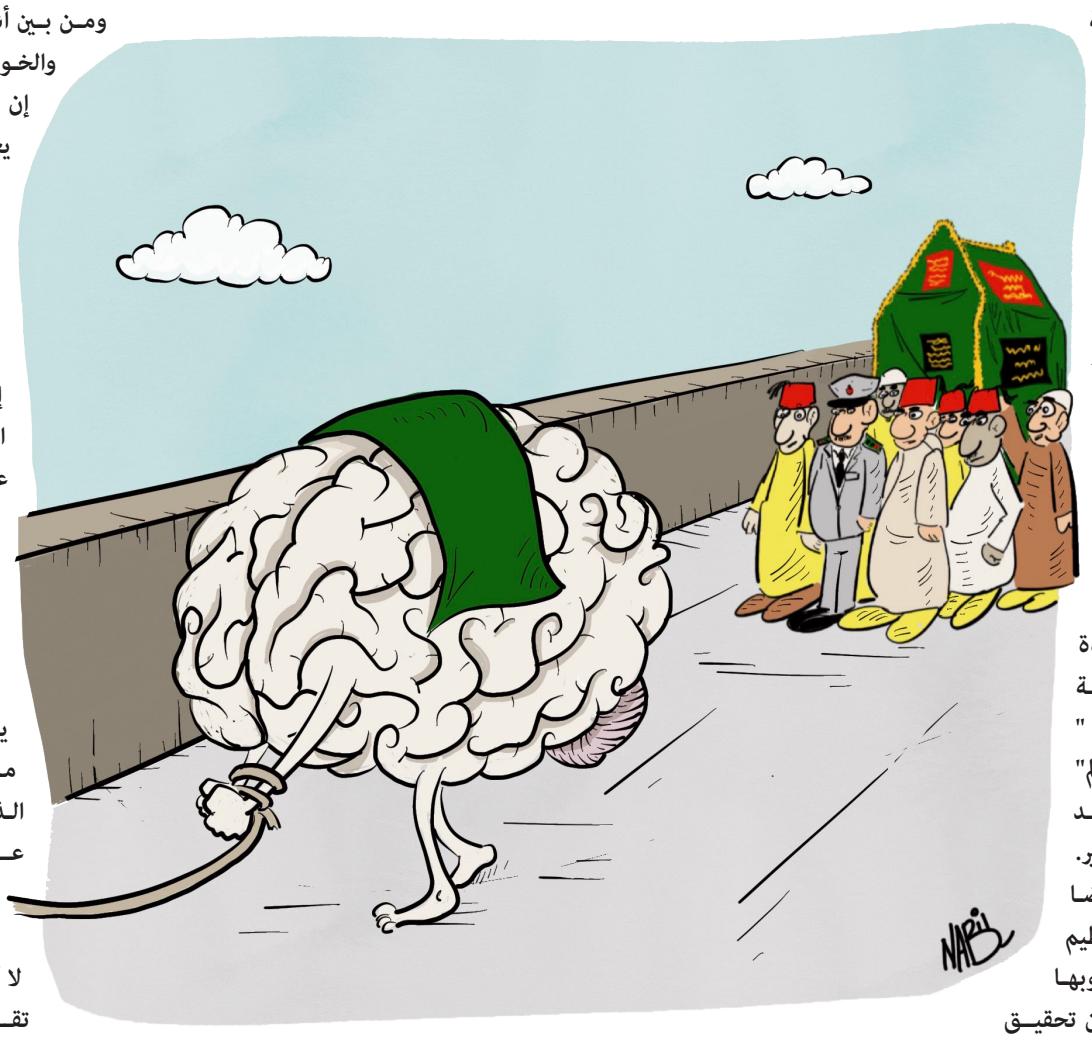


ومن بين أشكال التنفيس الجماعي والفردي عن الألم والخوف يمكن الحديث هنا عن "ظاهرة الزوايا". إن استحضار نظرة عامة على جغرافيا المغرب يعطينا صورة واضحة عن الانتشار البين ل "مؤسسات" الأضرحة والزوايا المنتشرة في مختلف المناطق، دون تمييز بين الحواضر والبوادي، والتي تمتد من حيث زمن تأسيسها من عهد الأدارسة إلى وقتنا الراهن.

إن الزوايا والأضرحة تعتبر مرتعا تلتجئ إليه الأرواح المتعبة من قساوة الحياة، باحثة عن خلاصها واستقرارها النفسي والذهني ضمن وجع الجماعة المشترك، كيف لا ونحن أصحاب المثل العربي "إذا عمّت هانت"، فكلما كانت المصائب والمأساة جماعية كلما قل ثقل حملها. وفي هذا الصدد نستحضر قولة للكاتب المصري يوسف زيدان في روايته "عزازيل" التي سرد من خلالها قصة الراهب هيبا، ذاك الشاب الذي جال أرض الله الواسعة من أجل البحث عن الحرية وتحقيق العدل، هذه الحرية التي سلخت وعذبت في سبيلها الفيلسوفة والعالمة هيباتيا أيضا، والتي ذكرت كوجع لا كبطلة ضمن الرواية نفسها.

تقول المقولة "لا يوجد في العالم أسمى من دفع الآلام عن إنسان لا يستطيع التعبير عن ألمه". ولعل زيارة الأضرحة والمشاركة في طقوس الشعوذة والتقديس، ماهي إلا إفصاح غير مباشر عن خيبة الأمل والخذلان اللذان قد يصطدم بهما الإنسان حينما يشقى ويخفق في طرح السؤال والتعبير من مشاعره وإحباطاته، والتي لا تجد مكانا يأويها ويحتضنها، وأحيانا يلتجئ الإنسان لأي مكان حتى لو كان وهما من أجل الاستمرار والعيش.. وتلك وظيفة الزوايا في مجتمع لم تتوفر له بعد المقومات العقلانية الحقيقية لبناء وضمان وجوده.

• يوسف رزين

# تأملات في الزاوية المغربية

دخل المغرب أثناء تدهور الدولة المرينية في لجة من الاضطرابات شملت جميع المستويات. فمع ضعف هذه الدولة صار المجتمع عاجزا عن صد الهجمات الإيبيرية والأعرابية على حد سواء. كما انتشرت الفتن و الحروب الأهلية بين القبائل في شتى ربوع البلاد. اضطرابات بدا معها واضحا عجز مؤسسة المخزن المريني والوطاسي عن القيام بواجباته التأطيرية تجاه المغاربة. فلا هو فرض الأمن والنظام ولا هو حماهم من المجاعات الناجمة عن الجفاف.

وهكذا أسقط في يد الفئات المنتجة في المجتمع التي هي بحاجة الى سلطة مركزية تفرض النظام، حتى يتمكن الفلاحون من إنتاج فائضهم الداخلي و التجار من تسويقه. لقد كانت هذه الفترة هي فترة اختراق الأعراب للسهول المغربية وتسيدهم عليها ولجوء الفلاحين إلى الجبال. إنها فترة انهزام مغرب الحضر امام مغرب البدو.

وانضافت إلى ذلك بوادر مجيء السعديين لانتزاع السلطة من الوطاسيين، تحت يافطة مفهوم دولة الشرفاء المتعالية على العصبيات. والواقع أن هذا المفهوم يلفه سوء فهم كبير. فدولة السعديين لم تكن متعالية على العصبيات بل على المجتمع. فهي بدورها اعتمدت على عصبية عرب معقل الأعرابية، وهنا يكمن الفرق. فبخلاف العصبيات البربرية السابقة التي حكمت المغرب من خلال مفهوم المخزن أي ذلك الجهاز الإداري الذي يؤطر المغاربة لحمايتهم من تقلبات المناخ، فإنه مع الشرفاء السعديين أفرغ مفهوم المخزن من مضمونه وتحول إلى سلطة سياسية متعالية على الشعب ولا تدين له بشيء.

بمعنى أن المخزن السعدي صار مخزن الأعراب لا مخزن الحضر. فهو يتمثل دوره في جبي الأموال دون إعادة توزيعها على أفراد المجتمع، على اعتبار أنه يستمد شرعيته لا من خدمته لهم وتعاقده معهم، بل من مصدر خارجي قوامه النسب الشريف ليس إلا.

لذلك كان لزاما على مغاربة الحضر التفكير في حل لهذا الوضع المستجد. فوعيهم بدورية الجفاف وما يستتبعه من كوارث دفعهم إلى البحث عن إطار مخزني جديد يمكنهم من توجيه مخزون فائض السنوات الخصبة للاستهلاك في سنوات القحط. لذلك ومع نهاية الدولة المرينية وقيام الدولة السعدية فهم المغاربة أن نظامهم المخزني قد أصيب بالعطب والاحتلال الأعرابي ولم يعد ممكنا التعويل عليه. فتم التفكير إذن في إيجاد إطار مخزني بديل أخذ اسم الزاوية. فكيف ذلك؟

بداية، نشأت ظاهرة الصلحاء المتصوفة مع تدهور الدولة المرينية وصعود ظاهرة الشرف السياسي بها. صحيح أن الدولة المرينية رعت فئة المتصوفة وتقربت منها لتوازن بها فئة الشرفاء، لكن فئة الصلحاء اكتسبت مشروعيتها من طبيعة الواقع المغربي المتردي والذي لم يعد يرضي المغاربة الحضر. لذلك كان لافتا أن أول ظهور للرباطات/الزوايا كان بمناطق حضرية ساحلية تمثلت في سلا بزاوية ابن عاشر و أسفي برباط أبي محمد صالح.

و قد اشتهر هؤلاء الصلحاء بالتصوف والزهد وتعظيم الشعائر، فسعى إليهم المريدون من كل حدب وصوب والتفوا حولهم، ما جعل المؤرخ ابن قنفذ القادم من تونس يعبر عن افتتانه لكثرة الزهاد بالمغرب أثناء جولاته المتعددة به حيث قال: "وجملة الطوائف التي هي بالمغرب في الأرض التي تُنبت الصالحين كما تنبت الكلأ". تجدر الإشارة إلى أن كلمة الزاوية مشتقة من فعل الانزواء كما تعني أيضا الركن، فهي إذن ركن ينزوي فيه الصالح للتعبد والتفكير المعمق في مشاكل المغرب المعقدة والخروج بحلول تأطيرية له.

> فئة الصلحاء اكتسبت مشروعيتها من طبيعة الواقع المغربي المتردي والذي لم يعد يرضي المغاربة الحضر.

إذن مع قيام الدولة السعدية كان نظام الزاوية قد استوى بدوره واكتمل بنيانه ممثلا في كونه سيلعب دور المخزن البديل، والذي سيؤطر المغاربة الحضر ما دام أن المخزن السعدي الشرفاوي لا يمكن التعويل عليه. فمهمة هذه الزاوية/المخزن البديل هي تأطير المغاربة وحماية العملية الإنتاجية من تعديات الأعراب والمخزن الشرفاوي معا.

كانت أول شروط تأسيس الزاوية هو توفرها على شيخ مشهور بالصلاح والتقوى والكرامات والإتيان بالخوارق، والتي من خلالها يستطيع إبهار المريدين والعوام فليتفون حوله، ومن جهة أخرى يفهم ممثلي السلطة أن المساس به سيؤدي بهم إلى التعرض لخطر اللعنة. إنه في هاته الحالة يصبح شخصا محصنا من الاعتداء عليه، رغم عدم توفره على قوة عسكرية تحميه. غير أن هذه الحصانة لا تنحصر في شخصه بل يمدها إلى زاويته ويكسبها صفة "الحرم". وبهذا ومن خلال قانون الكرامة يصبح كل من اعتدى على الشيخ أو زاويته معرضا لخطر اللعنة في زمن اشتهر فيه المغرب بالفوضى وكثرة الحروب.

يطرح الشيخ بعد ذلك مشروعه التأطيري ممثلا في فرض الأمن في السهول والجبال والمسالك التجارية، عن طريق التحكيم والوساطة بين القبائل. وهكذا فإن امتثال المريدين من القبائل المحيطة بالزاوية لتعليماتها يمكنهم من فلح الأرض وتنظيم الأسواق في أمن وأمان.

و لا تكتفي الزاوية بهذا الدور بل تساهم في تنشيط العملية الإنتاجية وذلك بأن توفر لمريديها أدوات الإنتاج من بذور وأدوات فلاحة وبهائم وقروض وإصلاح منشآت الري وتوزيع المياه. كما تقوم بتوفير مخازن الطعام تحسبا للمجاعات الناجمة عن سنوات الجفاف الدورية، والتي حين يحل موعدها تقوم الزاوية آنذاك بأحد أهم أدوارها وهو إطعام الطعام للجائعين.

ولأن المغاربة آنذاك كانوا تحت حكم مخزن شرفاوي لا يتورع عن فرض الجبايات الثقيلة، فإنها كانت توفر لهم الحماية إذا استجاروا بحرمها. كما أنها لم تغفل عن واجب تهذيب المغاربة وتخليصهم من خلق التوحش الذي تفشى فيهم في ذلك الوقت، فعملت على تربيتهم من خلال بث تعاليم الشرع والإسلام و التصوف بينهم.

# تأملات في الزاوية المغربية

• يوسف رزين

وفي مقابل هذه الأدوار التي كانت تلعبها الزاوية، فإن مريديها بادلوها الاعتراف بالجميل فحملوا إليها الصدقات والهبات والهدايا. كما كانوا يتركون فيها ودائعهم من كتب ورسوم لحفظها من الضياع. و كدليل على ذلك نستحضر هنا مثال زاوية تناغملت، والتي أسسها عبد العزيز بن موسى البوكمازي، الذي جعل شعار زاويته "رفع الراية للزائرين" و "إرفاق الناس في زمن المسغبة"، لدرجة أنه رفع مسألة إطعام الطعام إلى درجة الجهاد. وقد اهتم بشؤون الوساطة والتحكيم في مختلف النزاعات فتوافد عليه المعوزون والمنقطعون وذوو الحاجات واستحرم الناس بزاويته فرارا من الكلف المخزنية.

كما أنه يسر لأتباعه ظروف إحياء الأرض وتعميرها، وقدم لهم الدواب والمواشي والزروع والزيوت والأكسية. بل وناب عن بعضهم في تسديد ديونهم. كما استعمل نفوذه لخفارة المسافرين وتأمين الطرق التجارية. فكان بذلك أن توفر الأمن للناس واتسعت حركة الاستقرار وازدهرت المبادلات التجارية. و نجد عند الشيخ أحمد بن محمد الشاوي مثلا آخر اضطلعت به الزاوية وهو إنجاز مشاريع البنية التحتية لصالح الناس، حيث كرس ثراءه لبناء قنطرة ابن طاطو بفاس بعد أن حطمها السيل. كما أصلح قنوات مياه جامع الاندلس بتكاليف بلغت سبعة آلاف أوقية. و قامت زاوية تمصلوحت بإنشاء شبكة ري جديدة بتلكرت وتكفلت بتوزيع المياه على السكان.

إذن يمكن القول إن الزاوية نجحت في مهمتها المتمثلة في تأطير أفراد المجتمع باعتبارها مخزنا بديلا يستطيعون الاعتماد عليه. لقد كانت الزاوية حلا لجأ اليه المغاربة لحماية العملية الانتاجية في وقت سادت فيه فوضى الأعراب، وذلك من خلال إضفاء هالة القداسة والكرامة على هذه العملية. لذلك نلاحظ أن الصلحاء استهدفوا بشكل أساسي المناطق الواقعة بين السهول والجبال لتأسيس زواياهم، بحكم أنها مناطق يكثر فيها الاحتكاك بين الرحل والمستقرين. فيتدخلون بإمكانياتهم التحكيمية لفض النزاعات بين الطرفين.

> إن الزاوية نجحت في مهمتها المتمثلة في تأطير أفراد المجتمع باعتبارها مخزنا بديلا يستطيعون الاعتماد عليه.

ولأن الإنتاج الفلاحي لا بد له من تسويق فقد اهتموا بتنظيم المواسم الدينية، والتي هي في نفس الوقت أسواق يعرض فيها الباعة سلعهم دون خوفا من تعديات الأعراب. ولأن هذه الأسواق لا بد لها من سبل آمنة فقد حرص أتباع الزوايا على تأمين الشبكات الطرقية وفرضوا وجودهم بمختلف المرافئ التجارية ومحطات العبور كأغمات وأزمور وتارودانت وأسفي وصفرو ومراكش وتادلة وسبتة.

و تبعا لهذا النجاح الذي حققته الزاوية في تأطير المغاربة وإدارة شؤونهم وحماية أنشطتهم الاقتصادية، فإنها استطاعت أن تتحرر من إطارها القبلي أو الجهوي، لتحلق خارج هذه الحدود الجغرافية المفترضة. إن الزاوية إذا كانت تنطلق من القبيلة فإنها لا تظل حبيسة أسوارها. إن مشروع الزاوية أكبر من تأطير قبيلة أو حتى لف من القبائل. إن مشروعها هو تأطير المزيد من الأتباع أينما كانوا داخل المغرب أو خارجه. ولذلك نجد أن إشعاعها امتد إلى الحجاز شرقا وإفريقيا جنوب الصحراء جنوبا. فهذه زاوية تمجروت بجنوب المغرب استطاعت أن تنشر فروعها في جل مناطق المغرب وخارجه حتى بلغت ثلاثمائة فرع. أما الزاوية الدرقاوية فقد حمل محمد بن الحسن بن حمزة المدني سنة 1820 إلى طرابلس تعاليمها وأسس فرعا لها ب "مسراتة" تحت اسم الطريقة المدنية، والتي امتد إشعاعها إلى تونس ومصر والحجاز. وكما يعلم الكثير فقد استطاعت الزاوية التيجانية بث إشعاعها إلى أعماق إفريقيا جنوب الصحراء. وكأن الزاوية المغربية بهذا الإشعاع والانتشار الواسع لأتباعها شرقا وجنوبا تخبرنا بأنها ترفض الاعتراف بواقع التقسيم و التجزيء لأرض المغارب، والذي تعرضت له غداة انهيار الدولة الموحدية. إن المتأمل في ظاهرة الزاوية المغربية و سلوكات أتباعها يستشعر وكأنها كانت حنينا لعصر الدولة الموحدية ومخزنها. وكأن الزاوية بكل الأدوار التي لعبتها كانت تحاول إحياء العصر الموحدي بتوحيده لأرض المغارب ومخزنه المسؤول عن رعيته.

> ولأن الإنتاج الفلاحي لا بد له من تسويق فقد اهتموا بتنظيم المواسم الدينية، والتي هي في نفس الوقت أسواق يعرض فيها الباعة سلعهم دون خوفا من تعديات الأعراب.

**يبقى السؤال إذن، ما موقف المخزن الشرفاوي (السعدي والعلوي) من الزاوية و أدوارها التأطيرية وكيف كانت العلاقة بين الطرفين؟. في الواقع كان هناك نوع من التعايش الحذر القائم على المد والجزر وإن لم يخل من مواجهات مفتوحة. لكن يمكن القول إنه ما من أحد من الطرفين استطاع إلغاء وجود الآخر. فكيف ذلك؟**

بنت الزاوية مشروعيتها على المقاومة السياسية للمخزن الشرفاوي. أي أنها كانت ذلك الدرع الذي يحتمي به المغاربة من تعديات هذا المخزن. لذلك فإنها حتى وإن كانت تعترف بوجوده، إلا أنها رفضت أن تتماهى معه، ووضعت مسافة فاصلة بينها وبينه رغم أن المخزن الشرفاوي لم يكن يقبل بأقل من التبعية الكاملة.

لقد كان دأب شيوخ الزوايا هو عدم الاختلاط بالسلاطين والتردد عليهم. و اتخذوا لذلك أعذارا شتى. فهذا أبو المحاسن الفاسي شيخ الزاوية الفاسية يرفض لقاء أحمد المنصور السعدي، بدعوى كبر سنه وكذلك فعل الشيخ أحمد بن عبد الله زعيم الزاوية المخفية حيث رفض ملاقاة السلطان المولى إسماعيل.

كما لجأ شيوخ الزوايا إلى أسلوب آخر في إعلان استقلاليتهم عن المخزن، وهو رفض الدعاء للسلطان على المنابر يوم الجمعة بدعوى أن ذلك بدعة. وهو الأمر الذي أغضب كثيرا من السلاطين. ومع ذلك فإن كثيرا من الشيوخ كانت لهم الجرأة لإعلان هذا الموقف، على اعتبار أنهم يمثلون المقاومة السياسية للمخزن. وكمثال على ذلك نجد المصادر تصف محمد بن ناصر زعيم زاوية تمجروت ب "كان شديد الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ولا يخاف في الله لومة لائم ولا يرى واقفا بباب ملك من الملوك ولم يخطب لملك قط".

وانسجاما مع خطه المعارض، خاطب هذا الشيخ المولى رشيد المعروف بشراسته مع الزوايا قائلا: "وأوصيك إذا أمكنك الله في أرضه وولاك أمر عباده أن توقظ قلبك لنشر العدل في الأرض وإحياء ما اندرس من سنة النبي ومحو كل بدعة ضلالة أحدثها جور الأمراء قبلك". بل إن هذا الشيخ دفع بمعارضته إلى أقصى حد بأن سلط الضوء على أصل الخلاف بين الزوايا والمخزن الشرفاوي فبين له أن النسب الشريف لا يمنح أية شرعية للسلطان ما دام لا يرعى مصالح المغاربة وذلك بأن خاطبه قائلا: "و لا يغرنك أنك شريف، فإن الشرف لا يزيدك إلا تأكيد وجوب طاعة الله عليك".

• يوسف رزين

# تأملات في الزاوية المغربية

وطبعا ما كان للمولى رشيد أن يتحمل مثل هاته المعارضة من طرف شيخ زاوية تمجروت، وهو الذي سبق و أن دمر الزاوية الدلائية. فما كان منه إلا أن كتب إليه كتابا شديد اللهجة يأمره فيه بالمثول بين يديه، مهددا إياه بأوخم العواقب إن رفض القدوم. لكن الشيخ مع ذلك استخف بتهديداته وتجاهلها. فقرر المولى رشيد التوجه إليه بجيشه في درعة لمعاقبته، لكن حدث أن توفي السلطان وسلم الشيخ وهو ما زكى كرامته لدى أتباعه.

ولم يقف هذا الشيخ عند هذا الحد بل كان يستغل نفوذه الروحي لمنع ممثلي السلطة من تنفيذ تعليمات السلطان، ويحذرهم من انتهاك حرمة الزوايا. و هنا يتبدى لنا دور آخر للزوايا وهو حماية الناس من بطش عمال المخزن، مستغلة في ذلك مبدأ "الحرم" الذي لم يكن ممثلو السلطة في الغالب يجرؤون على المساس به. وكمثال آخر نجد أن الناس استحرموا بزاوية تناغملت في أوقات الشدة بعد أن أنهكتهم الجبايات الثقيلة التي فرضها عليهم ممثلو السلطان.

وبطبيعة الحال ما كان للمخزن أن يقبل بهكذا معارضة، لذلك فقد عمل على وضع حد لها فتراوحت سياسته تجاه الزوايا بين القمع والاحتواء والمواجهة المفتوحة.

يوضح الباحث محمد جادور أن المخزن كان يراقب عن كثب تنامي ثروات الزوايا وتضاعف أتباعها، لذلك وضع لها حدودا كي لا تتجاوزها. ولهذا حذر أبو عبد الله محمد بن رضوان الشيخ أبا المحاسن الفاسي، حينما لاحظ ازدحام المريدين على زاويته قائلا: "يا سيدي إن موالينا الشرفاء، يعني ملوك الوقت، يقع في نفوسهم شيء من هذا الأمر". كما اتخذ أحمد المنصور إجراءات عقابية ضد زعيم أبي الجعد الشيخ الشرقي لما بلغه أنه مد نفوذ زاويته من منطقة تادلا إلى تامسنا.

ومنع المولى إسماعيل زعيم الزاوية الناصرية من أداء الحج لموسمين متتاليين بسبب رفضه ذكر اسم السلطان على المنابر. ونجد باشا مراكش بعد تخريب زاوية تسافت ينصح زعيمها بأن لا يدافع عن الغوغاء الذين لا طائل تحتهم ولا يقدرون على حماية أرواحهم. وهو الأمر الذي وعاه الشيخ جيدا فبادر إلى إعلان الطاعة وأعقبه من جانب المخزن إصدار ثلاثة ظهائر توقير واحترام لزاويته، تفوض لها استغلال منجم ملح وترخص لإعادة بناءها. ما يعني أن المخزن كان يستعمل سياسة العصا والجزرة لتدجين الزوايا المعارضة له وضمها إلى صفه وقد نجح في ذلك مع عدد منها.

لم يكتف المخزن إذن بالقمع بل لوح بجزرة الاحتواء، وقد أخذت هذه السياسة عدة أشكال. فنجد أنه منح شيوخ الزوايا ظهائر التوقير والاحترام وأعفى زواياهم من الضرائب والتكاليف ومنحهم إقطاعات أو عزايب. وتابع اختراقه للزوايا بأن أشرف على تنصيب شيوخها لينتهي باستتباعها بشكل كامل، وذلك من خلال تنصيب شيوخها قوادا له.

> **فمنها من عرف صراعات بين شيوخها ما جعلها تطلب وساطة المخزن وتخضع لشروطه وترتمي في أحضانه الشيء الذي أفقدها مصداقيتها لدى الإتباع، ومنها من لجأ إلى طلب الحماية القنصلية هربا من مضايقات المخزن، ومنها من تعاون مع الاستعمار، ومنها طبعا من قاومه ولم يعترف بسلطة الحماية.**

بيد أن هذه السياسة سواء في شقها القمعي أو الاحتوائي لم تفلح في تدجين كل الزوايا وتحييد معارضتها للمخزن. لقد ظلت العلاقات بين الطرفين بين أخذ ورد، ومد وجزر، حتى انفجرت في عهد المولى سليمان الذي اختار المواجهة المفتوحة مع الزوايا بغية استئصالها بالمرة، حيث مثل هذا العهد نهاية التعايش الحذر واندلاع الحرب الشاملة بين الطرفين. اتخذت هذه الحرب أولا شكل الحرب الإيديولوجية. فالمولى سليمان وفاء منه لأصوله الأعرابية، لجأ إلى استقدام المذهب الوهابي من الحجاز وإحلاله بالمغرب، معتبرا عدم شرعية الزوايا بسبب اتباعها للعرف بدلا من الشرع. وقد عبر عن موقفه المناهض للعرف الذي تستند عليه الزوايا بالقول: "فمن المنقول على الملل والمشهور في الأواخر والأوائل أن المناكر والبدع إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم... ووقعت فيهم المثلات وشحت السماء وغيض الماء واستولت الأعداء... وانتشر الداء وجفت الضروع ونقصت بركة الزروع. إن سوء الأدب مع الله يفتح أبواب الشدائد و يسد طريق الفوائد".

وجلي هنا أن المولى سليمان يعزف على وتر خوف المغاربة من الجفاف، وما يترتب عنه من آثار وخيمة كالجوع والطاعون والحرب الأهلية، و يربط ذلك بإتباع المغاربة للزوايا وبدعهم الممثلة في العرف. وكأنه هنا يحاجج الزوايا بأنها سبب الجفاف ولا يمكن أن تكون واقيا منه.

أما على المستوى المادي فقد لجأ إلى حرمان الزوايا من مواردها المالية، فمنع عنها الامتيازات التي كانت تتمتع بها. بل وصل به الحال إلى حرمانها من إقامة المواسم مع ما تمثله من أساس اقتصادي تعتمد عليه في تصريف منتجاتها. كان لهذه الإجراءات المخزنية أن دفعت بالطرفين الى المواجهة العسكرية الشاملة حيث ثار مولاي العربي وأتباعه على السلطان سليمان وكبدوه الهزائم المتتالية. كما أسروه سنة 1818 لعدة أيام بعد هزم جيشه و قتل ابنه المولى ابراهيم. وفي سنة 1819 حاصر بوبكر امهاوش مناصر زاوية درقاوة مكناس. أما في سنة 1820 فقد اتفق مولاي العربي الدرقاوي و الحاج العربي الوزاني وأعيان فاس على خلع السلطان سليمان وتنصيب ابن أخيه المولى ابراهيم بن يزيد خلفا له ووقعوا وثيقة بذلك.

نستخلص من كل ما سبق أن الزاوية والمخزن الشرفاوي كيانان سياسيان متناقضان، فرضت عليهما الظروف التعايش. فلا المخزن أزال الزاوية ولا هي أزالته. فكلاهما استمر في إطار من التعايش الحذر والصعب، وما من أحد كان قادرا على نفي الآخر. لكن مع ذلك فإن الزاوية جرى عليها ما يجري على أي كيان سياسي من شباب وهرم. فمنها من عرف صراعات بين شيوخها ما جعلها تطلب وساطة المخزن وتخضع لشروطه وترتمي في أحضانه الشيء الذي أفقدها مصداقيتها لدى الإتباع، ومنها من لجأ إلى طلب الحماية القنصلية هربا من مضايقات المخزن، ومنها من تعاون مع الاستعمار، ومنها طبعا من قاومه ولم يعترف بسلطة الحماية. إلا أن جميعها خفت بريقها بعد الاستقلال لتؤول في النهاية الى مؤسسة فلكلورية يغلب عليها الطابع الاحتفالي والتراثي.

ختاما نقول إنه من السهل إلصاق الصفات السلبية بالزوايا نظرا لما آلت إليه حاليا. فينظر إليها على أنها أداة من أدوات السلطة لتجهيل الناس وشدهم إلى الوراء وإلهاءهم عن قضاياهم الحقيقية. غير أن هذا الحكم ينطوي على تسرع كبير ويغمض العين عن الأدوار التاريخية التي لعبتها الزاوية في الدفاع عن المجتمع المغربي وحفظ كيانه. لقد كانت الزاوية نتاج أزمة خانقة مر بها المجتمع، وحينما انتفت هذه الأزمة انتفت الحاجة إليها. لكن الإنسان المغربي على ما يبدو لم ينسها أو يتنكر لها، بل ظل مرتبطا بها وإن في إطار فلكلوري احتفالي، معبرا عن امتنانه لمربيته التي رعته طوال الخمسة قرون الماضية.

**ملحوظة: سيتم نشر هوامش المقالة في النسخة الالكترونية www.attarik.net**

# حوار مع الفقيه المقاصدي محمد عبد الوهاب رفيقي

## الزوايا، التدين المغربي، الوهابية، بلعربي العلوي، اليسار، العيش المشترك، إمارة المؤمنين، تغلغل الوهابية..

تواصل جريدة الطريق اقتحامها لتحليل الحقل الديني، لمزيد من الفهم العلمي، وللتفكيك العقلاني للفاعلين فيه، من أجل تملك رؤية مجتمعية ترفع منسوب الوعي، وتقطع مع رواسب التطرف والإرهاب التكفيري، وتفضح اختراق الفكر الوهابي للنسيج المجتمعي، وذلك بالارتكاز على الجانب المشرق في الجانب الروحي لتاريخ المغاربة الذي بني على قاعدة التسامح والتعدد والعيش المشترك وتقبل الاختلاف والتعدد العرقي والديني والثقافي. في هذا السياق أنجزت جريدة الطريق هذا الحوار مع الباحث والفقيه المتنور محمد عبد الوهاب رفيقي، في ذات التيمة المتعلقة بتشعب الحقل الديني في المغرب.

### الطريق: ما تقييمك لمقاربة تاريخ الزوايا بالمغرب، بين سلطتها السياسية والدينية ؟

**محمد عبد الوهاب رفيقي :** لا بد أن الزوايا لعبت دورا كبيرا في تاريخ المغرب، وسجلت حضورا قويا على مر تعاقب الدول، بتعدد وظائفها وأدوارها الروحية والمادية وفي إشاعة التربية الصوفية، فيما عرف بالرباطات، وتوسع مجال نفوذها حتى خارج المغرب وفي ربوع إفريقيا، وتطورت هياكلها لتتجاوز الجانب الديني، والاجتماعي لتدخل غمار السياسة في مختلف أحقاب تاريخ المغرب، وقد اختلفت مشارب هاته الزوايا بين تأييد السلطة أو الوقوف ضدها، كما وقع بين الدلائيين والدولة العلوية. فالزوايا لم تكن لها فقط الوظيفة التربوية الدينية التي هي أساس التصوف، بل كانت أيضا مكتبات للعلوم وخزانات للمخطوطات القيمة، وهنا كانت أدوارها الثقافية والتأطيرية. ونسجل هنا أيضا الأدوار الاجتماعية للزوايا خصوصا وأن المغرب عرف عدة كوارث مرتبطة بالأوبئة والمجاعات، حيث كانت تقدم الغذاء والدواء والعزاء، الإيواء، وهو ما جعلها تجتذب عددا من الأتباع. وقد كانت لبعض الزوايا وظائف الدفاع عن الوطن بالجهاد العسكري لتحرير الثغور. وقد كان أيضا من مهامها التحكيم والصلح بين المتخاصمين، وفي النزاعات حول السلطة.

### الطريق: هل يمكن للزوايا الحديثة الاقتصار على دورها الصوفي والتأملي الحسي، بدل خوضها غمار لعبة المواقع السياسية ؟

**محمد عبد الوهاب رفيقي :** طبعا في العصر الحديث، خصوصا مع مركزية الدولة وسيطرتها على العديد من السلط، تقلصت أدوار الزوايا، وانكمشت أدوارها السياسية، وبحكم أن الدولة مدنية من المفروض أخذ مسافة بين الأدوار التربوية الدينية والتأملية والممارسة السياسية، والاقتصار على التصوف العرفاني المبني على المحبة، ونشر قيم الإخاء والسلام، هذه هي القيم التي أحبذ فيها أدوار الزاوية، ولا أميل لأي دور لها في غمار اللعبة السياسية، أو أن تحشر في زاوية المنافسة السياسية، لأن ذلك يضر بسمعتها.

### الطريق: ما منظورك لمشروع الدين الوسطي الذي تبنته الدولة، داخليا بحصر الحقل الديني في إمارة المؤمنين ومجالسها العلمية، وخارجيا ببعثات أئمتها لنشر هذا النموذج بإفريقيا وأوربا ؟

**محمد عبد الوهاب رفيقي :** مع كل ما يمكن أن أسجله من ملاحظات على المشروع الديني الوسطي للدولة، إلا أنها تجربة تستحق الإشادة، لأنها استطاعت الحد من الكثير من الفوضى الدينية، حيث الجميع كان يمكن أن يمرر أفكاره التكفيرية والهدامة، وتصاعد موجات التطرف التي كان من الصعوبة ضبطها، لهذا فحصر عملية الإفتاء في المجالس العلمية وتحت سلطة إمارة المؤمنين حد من تطرف الإفتاء التكفيري، وهو نموذج مركزي تتطلع لتطبيقه عدة دول إفريقيا نخرتها الجماعات الجهادية الإرهابية.

> تقلصت أدوار الزوايا، وانكمشت أدوارها السياسية، وبحكم أن الدولة مدنية من المفروض أخذ مسافة بين الأدوار التربوية الدينية والتأملية والممارسة السياسية.

> مع كل ما يمكن أن أسجله من ملاحظات على المشروع الديني الوسطي للدولة، إلا أنها تجربة تستحق الإشادة، لأنها استطاعت الحد من الكثير من الفوضى الدينية، حيث الجميع كان يمكن أن يمرر أفكاره التكفيرية والهدامة، وتصاعد موجات التطرف.

# حوار مع الفقيه المقاصدي محمد عبد الوهاب رفيقي

## الزوايا، التدين المغربي، الوهابية، بلعربي العلوي، اليسار، العيش المشترك، إمارة المؤمنين، تغلغل الوهابية..

**الطريق : هل يمكن أن يكون الدين الشعبي المغربي، المتسامح والمنفتح على بقية الحضارات استنادا للفسيفساء المتنوع للمغرب، وصفة فعالة لمواجهة تطرف الإرهاب وغلاة التأويل الحرفي التكفيري ؟**

**محمد عبد الوهاب رفيقي :** هو لتدقيق المصطلح، فأنا أسميه التدين المغربي، وذلك للتفريق بين الدين كأصول ومقاصد عامة، والدين الذي يحتك بالمجتمع وتأثره ببيئة وخصائص بلد ما. لهذا المصطلح الأدق هو التدين المغربي، وهو وصفة فعالة ضد التطرف ولمواجهة موجات التكفير، لما يجمعه من تسامح واستيعاب، وهنا تحضرني مقولة أحد المستشرقين الفرنسيين، حين قال إن الأمازيغيين لم يسلموا، بل تمزغ الإسلام، فالتدين المغربي استوعب الاختلاف العرقي، التنوع الثقافي، تعدد العادات والتقاليد، والفسيفساء اللغوي، ولم يتعرض أي مكون للإقصاء كما يفعل العديد من المتأسلمين اليوم. فمن يرصد بيئة التسامح والتعايش التي سادت المغرب قبل أن تخترقنا تيارات السلفية التكفيرية والوهابية المتطرفة، سيقف على سمو العيش المشترك المتعدد والمتنوع والقبول بالآخر الذي طبع المغاربة، وهنا نستعرض هامات بصمت تاريخنا المتنور والتي كانت تؤطر المشهد الديني المغربي، من قبيل شيخ الإسلام بلعربي العلوي، ونقف عند فتاويه المخففة حول الحجاب والفوائد، وموقفه من بعض أحكام البخاري، وكذا موقفه المقرب من السياسيين اليساريين في ذلك الوقت. هذا هو نوع التدين الذي اختاره المغاربة حينما جعلوا العلامة بلعربي العلوي شيخا عليهم، ووزيرا لهم ومرجعا دينيا، وهذا البعد المغربي المتسامح والراقي الذي تَمَثَّلَ فصلَ الدين على الدولة والإيمان بالتعايش المتعدد ومسايرة العصر، يناقض موجات التكفير الوهابي القادمة من الشرق والتي اخترقت نسيج المجتمع.

> وهنا نستعرض هامات بصمت تاريخنا المتنور والتي كانت تؤطر المشهد الديني المغربي، من قبيل شيخ الإسلام بلعربي العلوي، ونقف عند فتاويه المخففة حول الحجاب والفوائد، وموقفه من بعض أحكام البخاري، وكذا موقفه المقرب من السياسيين اليساريين في ذلك الوقت.

**الطريق: هل يمكن لتقاطع البعد الإنساني وتلاقح الحضارات والعيش المشترك بين الملل المختلفة، أن يكون دينا جيدا للإنسانية، على قاعدة التسامح والتعايش ؟**

**محمد عبد الوهاب رفيقي :** بالطبع لكل شخص الحق في أن يكون له دينه الخاص، فعلينا الدفاع بكل جوارحنا على الحق في الاعتقاد، والقناعات الخاصة هو أحد المطالب الحقوقية الكبرى، التي يجب أن بجمعنا النضال من أجلها، لكن ما يجب أن يكون مشتركا بين المختلفين في الأعراق الأجناس والأديان والثقافات الحضارات، هو الإنسانية بقيمها الكبرى للتسامح والتعايش، والتعدد والتنوع بين البشر على اختلاف توجهاتهم وأفكارهم وقناعاتهم. هذا هو المدخل لبناء مجتمعات آمنة ومستقرة، وذلك لتربية الأجيال القادمة على قيم ليس فيها تطرف، ليس فيها تشدد، وغير قابلة للانجذاب للجماعات المتطرفة.

# حوار مع الفقيه المقاصدي محمد عبد الوهاب رفيقي

## الزوايا، التدين المغربي، الوهابية، بلعربي العلوي، اليسار، العيش المشترك، إمارة المؤمنين، تغلغل الوهابية..

**الطريق: إن تفاعلكم الإيجابي، كفقيه متنور مع اقتراح حزب الطليعة لإلغاء شعيرة عيد الأضحى، بسبب الضرر والخطورة على صحة المغاربة، جلب لكم عداء بعض المتزمتين، ما منظوركم، لهاته النازلة ؟**

**محمد عبد الوهاب رفيقي :** بكل صدق، لازلت أعتبر إلى اليوم، أنه رغم المبادرات الإيجابية التي يمكن تسجيلها في تعاطي الدولة مع وباء كورونا، فإن أسوأ قرار اتخذ، وكان فيه كثير من التسرع وكثير من الارتجال، هو عدم تعطيل عيد الأضحى لهذه السنة، لم أفهم كيف كان يمكن تعطيل صلاة الجماعة والجمعة والتراويح، وصلاة العيدين، ولم يعطلوا عيد الأضحى بكل ما يواكبه من طقوس تقتضي الاجتماع المكثف والتزاحم، حيث يصعب احترام الاحتياطات والإجراءات الوقائية والصحية. لعله كان التفكير في المصلحة التجارية والاقتصادية، لكن دواعي هذا القرار الذي لم أستوعبه للآن، خصوصا أن المغرب سبق له أن عطل هاته الشعيرة في مناسبات سابقة، والتي هي طقس ليس بفرض ولا واجب، وهو قرار خاطئ سبب ارتفاع عدد المصابين، والذي وصل للآلاف، وكذا عدد الوفيات بأرقام غير مسبوقة بسبب قرار ارتجالي، حيث لم يكن هناك أي حرج حتى ديني في إيقاف هاته الشعيرة هاته السنة صونا لأرواح المغاربة.

بكل صدق، لازلت أعتبر إلى اليوم، أنه رغم المبادرات الإيجابية التي يمكن تسجيلها في تعاطي الدولة مع وباء كورونا، فإن أسوء قرار اتخذ، وكان فيه كثير من التسرع وكثير من الارتجال، هو عدم تعطيل عيد الأضحى لهذه السنة، لم أفهم كيف كان يمكن تعطيل صلاة الجماعة والجمعة والتراويح، وصلاة العيدين، ولم يعطلوا عيد الأضحى بكل ما يواكبه من طقوس تقتضي الاجتماع المكثف والتزاحم، حيث يصعب احترام الاحتياطات والإجراءات الوقائية والصحية.

**الطريق: ما رأيك في فتوى الشيخ الكتاني الذي برر لزميله الفقيه اغتصاب الأطفال، كأنه حنين لزمن الغلمان؟**

**محمد عبد الوهاب رفيقي :** صراحة من المؤسف جدا، بل من المخزي، أن تنصب بعض الأصوات للدفاع عن هذا المغتصب، هذا البيدوفيل، الذي اعترف باعتدائه على عدد من الأطفال، فأرى أن جريمة التبرير والدفاع عن هذا المغتصب، لا تقل عن جريمة الاغتصاب نفسها. فلا يكفي أن يكون الشخص إماما لمسجد أو مُحَفِّظاً للقرآن الكريم ليكون قديسا أو منزها لندافع عنه أو نرفع عنه التهم، رغم اعترافه بارتكاب هاته الجرائم، فالخطيب والفقيه ليس شخصا معصوما، ويمكن أن يكون وحشا ومريضا مختلا اجتماعيا، فبعضهم طالب بالإعدام للمغتصب الأول، في حين نحى بعض المتأسلمين لتطبيق احتيال "لن نسلمكم أخانا"، بالدفاع عن الفقيه المغتصِب وحمايته، فقط لأنه يلبس نفس جبتهم ويفكر كما يفكرون، وأتعجب لفقهاء يطالبون بتفعيل قرينة حضور أربعة شهود، فنحن نعيش في ظل قوانين مدنية، وليس قوانين فقهية تقليدية بائدة قد تغيرت منذ زمن بعيد، بعدما تبين للمجتمعات أنها لم تعد صالحة للحكم، بالإضافة إلى أننا لا نتحدث عن حالة زنى بل عن حالة اغتصاب، إنها حالة بيدوفيليا تم فيها الاعتداء على أطفال صغار في ريعان عمرهم، هذه جريمة كبرى، لا تقاس على أية عملية جنسية بين شخصين بالغين

متراضيين. للأسف الشديد ما اشتغلت عليه الوهابية لعقود طويلة لازال أثره ماثلا، ولازال بيننا من يسمون أنفسهم شيوخا يدافعون عن هذا الفكر الذي أنتج كثيرا من التطرف ومن التشدد الذي نعاني منه اليوم، وتفريخ الخلايا الإرهابية لن يتوقف أبدا، آخرها التي تم تفكيكها مؤخرا، مادامت هاته الأفكار المتطرفة تعيش بيننا، ومادام هؤلاء الشيوخ التكفيريون يعبرون عن إرهابهم التكفيري، ويمررون ذلك وسط الناس دون تدخل حازم، بفكر وهابي يهدم أسس المدنية، ويخلخل أمن الناس.

• إعداد وإنجاز : إسماعيل المتقي - منعم وحتي

# التصوف بين الجانب الروحي للزوايا والاحتواء المخزني

• رشيد سليم

**كيف يمكن تفسير ظاهرة السلطة في مجتمعنا؟ وما علاقة ذلك بالزوايا ومن خلالها بالتصوف؟ ذلك ما سنحاول التطرق إليه انطلاقا من تحليل بنية الظاهرة الدينية عموما، وبنية الفكر الصوفي خصوصا، ومدى تأثيرهما على نمط العلاقات في المجتمع.**

## التاريخ كسياسة

داخل أي جماعة إنسانية هناك رؤى مختلفة للوجود، هذه الرؤى تتمثل الوجود البشري داخل العالم كمجموعة من العلاقات المعقدة، تربط الناس بعضهم ببعض ثم تربطهم بمحيطهم الخارجي، وتتضمن مجموعة من التمركزات والأولويات والتي تحدد وعيا كليا معينا.

فالإسلام (كفكر) على سبيل المثال، ليس كتلة بسيطة منسجمة ذات بعد وحيد، بل يعكس مجموعة من التمركزات المتداخلة مع بعضها البعض: منها على سبيل المثال (حسب قراءتنا التاريخية) - الانحياز للذكر على حساب الأنثى - الانتصار لله مقابل الإنسان (الأولوية لحفظ الدين على حفظ النفس) - الدفاع عن مصالح الفقراء في وجه الأغنياء تارة ـ والدفاع عن مصالح الأغنياء في وجه الفقراء تارة أخرى (إقرار العبودية والفقر...إلخ).

هذا الوعي الكلي يحاول استيعاب الحياة والوجود بكل تعقيداتها في لحظة تاريخية معينة، وهو ما يفتأ يتغير ويتطور ليشكل التاريخ. هذا التصور للتاريخ يقابله عند هيجل مفهوم "روح العالم" والتي تكشف عن ذاتها من خلال الوعي الانساني المتجسد بثقافة المجتمع.

بالمقابل وأحيانا أخرى، يتخذ هذا التمثل وهذه الرؤيا شكلا بسيطا لفئة معينة من الناس لهم غاية مباشرة آنية ضيقة مادية، هي امتلاك الثروة ووسائل الإنتاج، في هذه الحالة نتحدث عن مصلحة وعن صراع مصالح عوض الحديث عن وعي كلي

وتمثل هذه الرؤية المادية، القراءة الماركسية للتاريخ.

وسواء تعلق الأمر بالوعي الكلي أو المصلحة الضيقة فكلها غايات ورؤى فكرية تسعى لفرض نفسها على أرض الواقع، من خلال فرض حزمة من القوانين التي تحدد حقوق وواجبات كل فئة وتكرس تراتبية اجتماعية لفئة على حساب فئة.

وطالما الواقع لا يسعها كلها فهي تدخل في صراع حتمي فيما بينها، هذا الصراع يتم على مستويين:

• مستوى فوقي هو مستوى الصراع الفكري: فيتخذ شكل جدل وحوار وتنظير فكري (مثاله دعوة الرسول للإسلام في مكة لمدة ثلاثة عشر سنة).

• مستوى تحتي هو الصراع على السلطة الذي يمكن أن يتخذ شكل نزاع عسكري (الإسلام في المدينة) أو تنافس اقتصادي أو منافسة على الفضاء العام ووسائل التواصل (أنظر هابرماس).

وسواء تعلق الأمر بالصراع في مستواه الفوقي أو التحتي فكلاهما يدخل في مفهوم السياسة بمعناها الواسع.

# التصوف بين الجانب الروحي للزوايا والاحتواء المخزني

• رشيد سليم

## الدين كفعل سياسي

الدين كوعي وكرؤية للوجود تحاول فرض نفسها على أرض الواقع هو بمثابة فعل سياسي وهو يمر بمرحلتين:

• مرحلة حياة النبي حيث يكون الوعي حيا متفاعلا مع محيطه.

• مرحلة موت النبي: ففي الإسلام مثلا خلف النبي إثر وفاته نصا يُفصل رؤيته الوجودية، لكن النص -أي نص - مهما كان مفصلا يظل بمثابة "وعي ميت ناقص"، وغير قادر على التفاعل مع الواقع ومتغيراته وأحداثه وزخمه، الشيء الذي طرح إشكالا بالنسبة للمسلمين وجعلهم ينقسمون إلى ثلاثة مذاهب رئيسية في محاولتهم لاسترجاع الوعي الحي :

- فئة اعتبرت النص وعيا كاملا يمكنه استيعاب الواقع، إلا أنها ما فتئت تناقض نفسها وتضيف إليه من خارج النص الأصلي تحت مسميات مختلفة (رأي الصحابة، رأي التابعين، إجماع العلماء، الاجتهاد)، وهذا هو المذهب السني.

- فئة دعت إلى إعادة تمثل الوعي النصي من خلال البشر، ثم فسح المجال لهذا التمثل أن يحيا من خلال ملكة العقل وقواعده المنطقية (مذهب المعتزلة).

- وأخيرا فئة نفت انقطاع الاتصال بمصدر الوعي أو الحضرة الإلهية، وأعادت الاتصال به مباشرة عن طريق الكشف والفتوحات الربانية في شخص شيخ الطريقة العارف بالله، ذو النسب الشريف وهذا هو المذهب الصوفي.

## البنية الفكرية للمذهب الصوفي

رأينا كيف أن المذهب الصوفي ينحو نحو إعادة ربط الصلة مباشرة بالمصدر المتعالي عن طريق الشيخ، هذا الإحياء والاسترجاع للمصدر يُفقد النص شيئا ما من مركزيته لصالح الشيخ، والذي يكتسب هيبة وقداسة، ولهذا الأمر نتيجتين رئيسيتين:

ـ من جهة، واعتمادا على قدسيته وعلى الكشف الرباني، يقوم شيخ الطريقة بتحييد النص المقدس بما يمثله من كثرة التمركزات وتعددها وتباينها بطريقة قد تخلق تصادما وعنفا مع تمثلات ورؤى الآخرين. وذلك لفائدة مبدأ وحيد وبسيط هو الانتصار للتسامح والحب ولمكارم الأخلاق، مع تهذيب النفس ومحاربة شهواتها بالدعوة للزهد وعدم الخوض في الصراعات على المصالح الضيقة وعلى السياسة خصوصا.

ـ ومن جهة أخرى فإن الفكر الصوفي يكرس لنمط علاقة بين الشيخ والمريد، يتماهى مع العلاقة التي تربط بين المقدس والمدنس، وتتميز بالخصائص التالية:

√ الطاعة والخضوع التام : يتبدى ذلك من خلال حزم الواجبات والأذكار والطقوس المرهقة التي يفرضها الشيخ على مريديه قصد اختبار مدى طاعتهم وإذعانهم.

√ "الإيمان" بالشيخ : والمقصود بذلك الطاعة العمياء للأوامر في غياب أي فهم أو إدراك لغاياتها (كحال سيدنا موسى مع الخضر).

√ عدم "الشرك" : ومعناه الولاء المطلق المتفرد للشيخ دون سواه (سلطة أو صلة قرابة...إلخ).

√ الثواب والعقاب: حيث يُكافئ المريد الخاضع بتقريبه من الشيخ وإجازته، بينما المريد الذي لا يستجيب لكل الشروط السابقة يتم استبعاده أو على أقل تقدير لا تتم ترقيته وإجازته.

كخلاصة فإن كل ما أسلفنا يؤسس لعلاقة سلطوية استبدادية استيلابية.

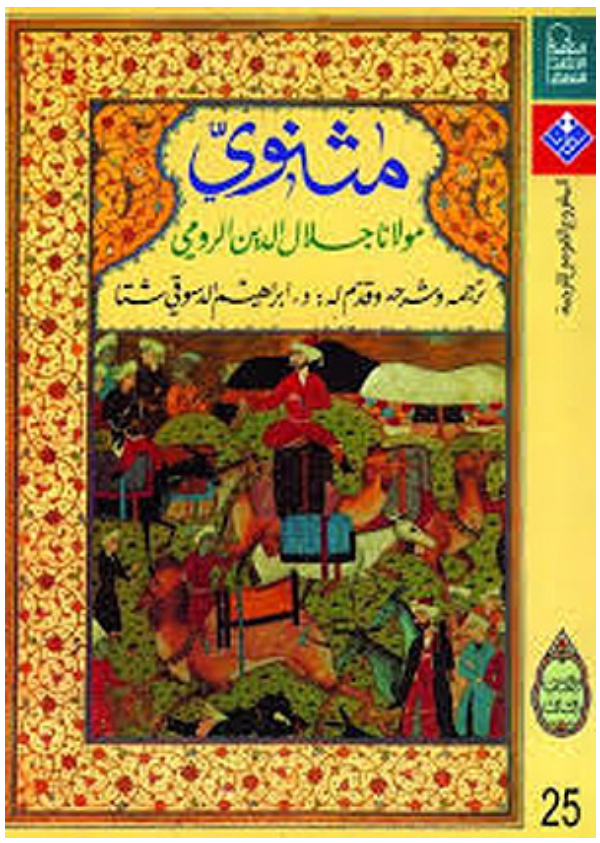


## البنية المؤسساتية الاجتماعية للزاوية وعلاقتها بمحيطها

الزاوية لغويا هي الركن، وتأتي في هذا السياق بمعنى الركون إلى الزاوية والاعتزال. فالشيخ "الصالح" المتصوف يعتزل الحياة اليومية بما هي ثرثرة Bavardage، على حد تعبير هيدجر، واستغراق في تفاصيل الحياة اليومية وفروعها الهامشية من أجل العودة للمركز النقي الصافي الإلهي.

تدريجيا يؤسس الشيخ لطريقته أو مدرسته ليكون له مقدمين يرتقون تدريجيا قربا إليه حتى يصلوا إلى مرحلة تسمح للشيخ بإجازة الواحد منهم، كما لو أنه يمنحه قبسا من الهدي الرباني (السر)، مما يتيح له إنشاء زاوية أخرى تظل تابعة روحيا للزاوية الأصلية ووفية لطريقتها. وهكذا تنتشر الزاوية أفقيا وتدخل في علاقات مع البنية الاجتماعية لمحيطها الجغرافي، والذي تمثله القبيلة.

تملك القبيلة بنيتها السلطوية الخاصة المتمثلة في شيخ القبيلة أو مجلس القبيلة "الجماعة"، والذي يفرض سلطته من خلال الأعراف والعادات والتقاليد، لكن رغم أهمية هذه البنية إلا أنها تظل عاجزة عن ضمان الاستقرار والأمن؛ بل في كثير من الأحيان قد تكون هي ذاتها تقف وراء العديد من النزاعات القبلية والحروب الأهلية، هنا يدخل شيخ الزاوية على الخط بإعطائه إمكانية فرض هذا النظام وهذا الأمن من خلال سلطته الروحية والتي تفرض نفسها على الجميع، فرضى الشيخ من رضا الله، وأي إرضاء له هو جلب للبركة بما هي إحلال للأمن، والرخاء، والاستقرار، على العكس من ذلك، فعصيانه أو إغضابه هو جلب للسخط والقحط والأمراض. كل ذلك منح للزاوية مكانة اجتماعية وسلطة داخل القبيلة.

# التصوف بين الجانب الروحي للزوايا والاحتواء المخزني

• رشيد سليم

## علاقة المخزن بالقبيلة ومن خلالها بالزاوية

اتسمت علاقة المخزن بالقبيلة في عهد السيبة بالتوتر مدا وجزرا، فالمخزن لم يكن متجذرا ومندمجا في ثقافة بلاد السيبة، وكان يُنظر إليه كسلطة خارجية غايتها جبي الضرائب. بالإضافة إلى فرض واجبات أخرى كالجندية، والسخرة، والمؤونة وغيرها من لوازم الخدمة المخزنية، والتي كانت تقتضيها مسألة تجهيز "الحركات المخزنية" الموجهة لقمع الانتفاضات والتمردات القبلية والحركات الانفصالية.

وبالتالي فهذه العلاقة اتسمت في كثير منها بالجفاء، مما قلل من دور العامل أو القايد ممثل المخزن محليا، إلا أن ذلك لم يمنع المخزن من السعي لفرض نفسه بوسائل أخرى، إما إداريا عن طريق تزكية الزعامات القبلية وربط علاقات بالأعيان اعتمادا على تبادل الهبات والهدايا.. أو عسكريا بالقمع أو ما يسمى ب "الحَرْكة" .

كل هذا السياق السياسي والتاريخي جعل المخزن يلجأ إلى الزوايا كوسيلة لتعضيد سلطته وفرض سطوته على القبائل ومن خلالها على مجموع ربوع البلاد.

## علاقة الزاوية بالمخزن

### علاقة مباشرة

حاول المخزن استغلال نفوذ الزاوية لتمرير شرعيته وإحكام سلطته على الهامش المتمرد، فأسس لعلاقة تبادل مصالح مع الزوايا. من جهة تقوم الزاوية بإضفاء الشرعية على بيعة السلطان وكذا على سياسة المخزن (من ضرائب وخدمة...إلخ.)، وتمنع بالتالي أي تمرد. مقابل ذلك يغدق السلطان على الزوايا بالأموال والهبات ما يسمح لها بتقديم خدمات أكبر للناس (إطعام الفقراء وأبناء السبيل وإيواءهم، بناء المدارس والمكتبات... إلخ)، ويمكنها ذلك من توسيع نفوذها. كما يمكن للسلطان أن يمنح لشيخ الزاوية ظهائر التوقير والاحترام، وقد وصل به الأمر إلى تفويض سلطة الجباية لشيخ الزاوية.

### علاقة غير مباشرة من خلال خلق نمط تفكير معين

بغض النظر عن سلطة الزاوية والتي تعتبر وسيلة من الوسائل التي قد يلجأ إليها المخزن لتمرير سياسته وفرضها على رعاياه، فإن انتشار التصوف كنمط تفكير وترسيخه في المجتمع، يعتبر في حد ذاته وسيلة ناجعة لضمان نفاذ هذه السلطة في المجتمع. حيث أن الفكر الصوفي يتميز بصفتين تساهمان في تكريس الحكم المطلق :

- فالوعي الصوفي هو وعي يعتمد على الزهد وعدم الخوض في المجال السياسي وصراع المصالح ما يؤدي إلى ترك الساحة فارغة وعدم مزاحمة السلطة عليها.
- زد على ذلك أن الفكر الصوفي يركز في دعوته على مكارم الأخلاق، متساهلا من ناحية تطبيق الشريعة مما يميز في أدبياتهم بين الحقيقة والشريعة، الشيء الذي يمنح للسلطة هامشا من المناورة لتمرير قوانينها وسياساتها (وعيها) دونما حاجة للدخول في صراعات تحت يافطة الزامية الشريعة.

من جانب آخر، يوضح عبد الله حمودي في كتابه (الشيخ والمريد)، أن بنية السلطة وآلياتها داخل الفكر الصوفي تكرس الخضوع والتقديس كسلوك لدى العامة، فينطبع ذلك على علاقة الحاكم بالمحكوم، والتي لا ترقى الى مرتبة علاقة واضحة بين طرفين متكافئين تؤطرها واجبات وحقوق، بقدر ما هي علاقة مبنية على التقديس والإجلال. فيكون فيها الحاكم بمثابة الأب الروحي الذي يسهر على مصلحة رعاياه بمبادرته الشخصية، خارج أي إلزامية أو محاسبة. ففي هذا الإطار تعتبر المراقبة سوء نية والمحاسبة إساءة والنقد مساسا بالقداسة، وبالتالي فهذه العلاقة تبقى غير خاضعة لآليات العقل من تحليل ونقد ومراجعة.

ينجم عن ذلك أن دور الرعايا ينحصر في التدافع والتنافس على خدمة السلطة خارج أي معيار من معايير الجدارة والاستحقاق سعيا لنيل رضاها والحصول على العطايا والهبات.

## خـــــاتمة

**لا نعلم ما هي البدايات والشذرات الأولى للتصوف في بلاد المغرب، لكن الأكيد أن انتشاره لم يكن عبثيا بل بدعم من السلطة التي وجدت فيه ضالتها. فحسب إحصائيات تعود لسنة 2003 يضم المغرب 5471 ضريحا، و1588 زاوية، الشيء الذي جعل المغرب يلقب ببلد الأولياء مقابل المشرق الذي هو بلد الأنبياء. هذا الانتشار المتضخم للزوايا والأضرحة ومن خلالهما للفكر الصوفي ساهم في انتشار نمط تفكير غير عقلاني، ونمط سلوكي يعتمد على الخضوع والطاعة سواء في المجال السياسي (حاكم – محكوم) أو في مجال التعليم (معلم – تلميذ) أو داخل الأسرة (أب – أبناء).**

# في الحاجة إلى التربية الإعلامية

# للوقاية من بؤر التشهير

• حميد هيمة

يعلن الخطاب الجنائزي للإعلام الجديد، المحمول عبر الوسائط الرقمية، موت الإعلام التنويري الملتزم بالمعايير والقيم الأخلاقية للمهنة، نتيجة إصابته بالوباء المستجد. في مقابل هذا الموت المأساوي، ظهر كائن جديد، محكوم بدوافع الإثارة والربح، لقيادة مجتمع الإعلام الالكتروني. وفي غياب التربية الإعلامية، التي يمكن أن تساعد على وضع التعاقدات الاجتماعية، تحول الإنسان، في العالم الافتراضي، إلى ذئب لأخيه الإنسان، بتعبير توماس هوبز.

في ظل الفوضى، تغيب المبادئ الأخلاقية والمهنية، وهو ما يعني، بالنتيجة، أن الجميع مرشح(ة) لأن يكون ضحية لنيران التشهير على صفحات إلكترونية قذرة، تخضع، فقط، لنزعات سوقية وربحية (الرفع من عدد الإعجابات والزيارات)، لا تستحضر، بشكل مقصود، كلفة التدمير النفسي للضحايا.

وفي زمن كورونا المستجد، استجد وباء (إعلامي)، في منصات التواصل الاجتماعي، للفتك بالمسؤولية الأخلاقية والمهنية لوسائل النشر والإعلام إزاء الفرد والمجتمع. وبذلك أصبح الجميع، اليوم، أمام جائحتين: الأولى، بيولوجية تتسلل عبر الجهاز التنفسي، والثانية إعلامية تصيب مكونات الجهاز النفسي.

## المدونون...رسل العالم القديم:

إلى عهد غير بعيد، في المرحلة التأسيسية للإعلام البديل بالمغرب، قاد المدونون، في العالم الافتراضي، حراكا إعلاميا للمطالبة بالديمقراطية وحقوق الإنسان، عبر مدونات شخصية أو جماعية ملتزمة بميثاق شرف التدوين.

كان العالم الافتراضي، قبل الربيع العربي، نخبويا يقتصر فيه التفاعل على الفئات التي حظيت بالتعليم والمعرفة، مما جعله فضاء خصبا لكل النقاشات والجدالات الفكرية والسياسية؛ التي لم يكن سقف (الهامش) الديمقراطي، للدولة ومعها التنظيمات غير الحكومية، قادرا على استيعابها في المغرب.

لم يكن المدونون المغاربة ملائكة، بل كانت مدوناتهم مرآة صادقة للانقسامات الفكرية والتجاذبات الحزبية والإيديولوجية التي تخترق المجتمع. لكن هذه التجربة، المأسوف على اندثارها، جسدت الحالة الثقافية لمجتمع الإعلام المواطن، القائم على قواعد ومدونات أخلاقية تضمن (العيش المشترك) لكل المذاهب والتيارات النشيطة في العالم الافتراضي.

لم تنته تجربة التدوين بميلاد المنتديات الاجتماعية، لكنها اختنقت بعد رفض السلطة الترخيص بتأسيس جمعيات المدونين المغاربة، وهو ما فرض الانتقال الاضطراري من المدونات إلى الفايسبوك، وبالتالي الانتقال من المدون(ة)/ الكاتب(ة) إلى المؤثر(ة)/ صانع(ة) المحتوى. لكن بأي مضمون؟

## الفايسبوك.. حائط زنقاوي!

لم يرث الفايسبوك، في بدايته الطفولية، نخبوية النشطاء من عالم المدونات، ولكنه ورث منها، أيضا، النقاشات السياسية والإيديولوجية. وتحول إلى وسيلة ناجعة للدعاية ضد مظاهر السلطوية، أسهمت في انطلاق الإعلانات الأولى لانتفاضات (ربيع الشعوب).

في هذا السياق، توسع استعمال الفايسبوك والتويتر بشكل غير مسبوق، لمتابعة الأحداث التي التزم الإعلام الرسمي حيالها الصمت. غير أن تضخم أعداد نشطاء الفايسبوك، واقتحامه من طرف أجهزة الدول، الخائفة من زحف شرارة الانتفاضات، حمل معه أمراض وأوبئة دمرت كل المكاسب (الديمقراطية) السابقة.

في هذه المرحلة الانتقالية، اختفى المدون، الذي كان يفاخر برأسماله الثقافي والنضالي، وصعد إلى (النجومية) المؤثر الذي لا يتردد في إعلان محتويات التفاهة نظير تفعيل جرس الإعجاب والمتابعة لصفحته!

لم يكتف المؤثرون الجدد بإعادة إنتاج تجربة الجرائد الصفراء الورقية، والتي كانت تحتل هامشا ضيقا ومخفيا في الأكشاك، بل اجتهد المؤثرون في صفحات الفايسبوك وقنوات اليوتوب للاحتفال بالتفاهة كمنتوج مطلوب في سوق استهلاكية واسعة، ومتحررة من كل الحواجز الجغرافية والأخلاقية.

والحقيقة أن هذا التوجه، الذي يبدو عفويا، يندرج ضمن مرحلة صعود "نظام التفاهة" (آلان دونو، 2015)، بوصفها نظاما اجتماعيا تكون الطبقة المسيطرة فيه هي طبقة الأشخاص التافهين أو النظام الذي تتم فيه مكافأة التفاهة والرداءة. في مقابل ذلك، يلاحظ الانهيار الغريب لمنظومات القيم وانحدار الأذواق وإبعاد الكفاءات...الخ.

المؤلف ذاته، ينبه إلى أن الإعلام، في نهاية المطاف، صناعة، والصناعة يحركها دائما هاجسا المصلحة والتسويق، كما يظهر في صحافة التبلويد التي تهتم بموضوع الفضائح ونشر المواد التافهة. وفي السياق ذاته، لم تعد الشبكات الاجتماعية ومواقع التواصل الاجتماعي مجرد مواقع لتبادل الآراء، بل أصبحت منابر يحتكرها الكثير من تافهي مشاهير السوشيال ميديا كنماذج ناجحة (ماديا)، وبتغييب مقصود لمعايير النجاح التي تعارفت عليها الإنسانية. يكفي أن نقارن هنا، على سبيل المثال، محدودية عدد المشاهدات لندوات فكرية تؤطرها أعلام أكاديمية وازنة مع العدد الغفير للمتابعين والمشاهدين للمسلسلات المبتذلة (روتيني اليومي).

وفي النهاية، لم يعد الفايسبوك، ومعه باقي الفضاءات الثقافية في العالم المادي، مسارح للإنتاج والإبداع الفكري والفني، بل تحول الأول إلى حائط يقصده رواد التفاهة لقضاء حاجتهم. ولتفادي انبعاث الروائح الكريهة، سيضطر الناس إلى استنساخ العبارة المنقوشة على صدر جدران فضاءاتنا العمومية على غلاف صفحة الحساب الشخصي بالفايسبوك: (ممنوع التبول هنا، وشكرا!)

ورغم سيطرة (نظام التفاهة)، على المحتوى المشاع في المنتديات الاجتماعية، إلا أنه لا يمكن إلغاء الإشراقات التثقيفية والتربوية والفنية، التي تهدف إلى تنمية الوعي الاجتماعي والجمالي للجمهور. لكن هذه الجهود تبقى محدودة أمام تفشي جائحة (الإعلام) الذي يتغذى بنشر الفضائح واحتراف التشهير، كخط تحريري رسمي، للحط من كرامة الأشخاص وانتهاك حياتهم الخاصة.

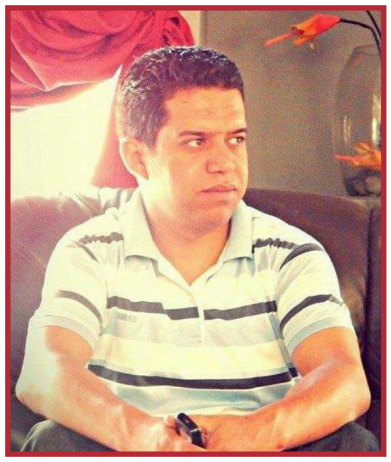

## بؤر التشهير أو القتل المعنوي:

في سياق تفشي وباء كورونا المستجد، استباح (المؤثرون)، الهواة كما المحترفون، كل المعايير والقيم الأخلاقية للإعلام والنشر، من خلال تصوير ونشر وتقاسم صور لأشخاص ذنبهم الوحيد زيارة سيارة تحمل رقم كوفيد 19 إلى مكان الإقامة لإجراء تحاليل الكشف عن الإصابة بهذا المرض. لقد أصبحنا، اليوم، أمام جائحتين، الأولى بيولوجية تتسلل عبر الجهاز التنفسي، والثانية إعلامية تصيب مكونات الجهاز النفسي.

ونتيجة استئساد إعلام التشهير، الذي يتغذى على (الفضيحة) بمعناها الاجتماعي، سيتفادى المشتبه في إصابتهم بالوباء الاتصال بالمصالح الصحية لاعتبارات نفسية واجتماعية. وبالتالي، فإن هذا (الإعلام)، غير المؤهل لتنمية الوعي الجماعي بمخاطر المرض وسبل الوقاية منه، يتحول إلى بؤر للتشهير بالمرضى وعائلاتهم، في تجاوز سافر للأطر القانونية والقيمية للإعلام والنشر الإلكتروني.

إلى اليوم، ما تزال السلطات، المعنية بإنفاذ القانون، (غير منتبهة)، في هذه الظرفية الصحية الاستثنائية، للتعديات التي تطال حق الخصوصية للمرضى والتشهير بعائلاتهم والمس بكرامتهم، مما سيؤدي إلى اعتلال صحتهم النفسية، وخاصة الفئات الهشة كالأطفال.

## في الحاجة إلى التربية الإعلامية:

لا يمكن مقاومة تفشي بؤر التشهير، في وسائل النشر الإلكتروني، دون إدماج المدرسة باعتبارها الوسيلة الأساسية لتمرير التربية الإعلامية التي ستمكن أجيال المستقبل من الأدوات التحليلية والنقدية اللازمة لمقاومة سلطة الصوت والصورة، وبهدف استعادة الإعلام الإلكتروني لمساره في تعزيز قيم المواطنة (الإعلام المواطن).

ولأن الإعلام حاجة مجتمعية لا يمكن الاستغناء عن خدماته، وبوصفه أحد مقومات النظام الديمقراطي، فإن الحاجة ملحة، اليوم، لتأطير المجتمع، في زمن الثورة الرقمية وما تعنيه من تدفق الأخبار والمعلومات ومشاعية حيازة وسائل التواصل الحديثة - التكنولوجية، بتنمية ذكاء الإنسان(ة) المستهلك(ة) للتعامل النقدي مع المحتوى الرقمي الرائج، والتعاقد على مدونة أخلاقية في إنتاج المحتويات الرقمية أو تقاسمها.

# غزلان
# الوجه الآخر لنتائج اللامساواة

• سارة سوجار

• سارة سوجار

استيقظت جهة سوس ماسة على فاجعة وفاة عاملة زراعية أخرى، على الطريق الرابطة بين أكادير وتزنيت، في مشهد أصبح مألوفا في ذاكرة الساكنة. هذه المرة الضحية تلميذة بالسنة الأولى باكالوريا، فرضت عليها ضائقة العيش الاشتغال في البيوت البلاستيكية الزراعية، بحثا عن مدخول يمكنها من توفير مصاريف الدخول المدرسي لهذه السنة.

فقيدتنا غزلان، تربت في أسرة فقيرة في "الزاوية" بنواحي أكلو، وهي أخت عاملة زراعية و ابنة عاملة زراعية، باختصار أسرة استعبدتها طاحونة الإقطاع الزراعي. كانت طفلة تحلم بتغيير هذا الواقع المتوارث، لكي تصنع واحدا آخر تستطيع به تحقيق أحلامها و أحلام عائلتها، لكن قدرها كان له رأي آخر في رسم مشهد مرعب، أنهى حياتها وأحلامها، كما انتهت حياة الكثير من العاملات الزراعيات في هذا البلد.

وأنا أتابع تراجيديا الواقع اليومي للعاملات الزراعيات، استحضر مقولة جبران خليل جبران "ويل لأمة تأكل مما لا تزرع وتلبس مما لا تصنع"، كلمات تجعلنا نتساءل بحسرة وألم عن مآل ما ننتج وما نصنع في هذا البلد، وعن مدى استفادتنا منه أفرادا وجماعات، فهل لغزلان وأخواتها نصيب من هاته الثروة المحصورة بين حفنة من الأيدي الآثمة ؟؟.

يبدو أن أغلبية المتخصصين في المجال، أجمعوا على فشل النموذج الزراعي المغربي، وعلى فشل استراتيجية احتكار الأرباح والأسواق من طرف الرأسمال الأجنبي وبعض من الرأسمال المحلي، من خلال ما يسمى ب "مخطط المغرب الأخضر"، والذي رهن واستعبد عرق وقوت اليد العاملة المغربية للاستثمار الأجنبي.

تعاني هذه الفئة من أعلى درجات عدم الاستقرار في مجال الشغل، بحكم الطبيعة الموسمية للعمل الزراعي، وبحكم تزايد الطلب على العمل فيه خصوصا من سكان القرى ومن الأحياء الهامشية بالمدن، ما يجعل المشغلين يستغلون هذه الوضعية الهشة والبنية الضعيفة لرقابة تنفيذ واحترام القانون، ما يفسح للإقطاع المجال من أجل مضاعفة أرباحهم على حساب هضم حقوق العاملات و العاملين، في انتهاك صارخ لأبسط حقوقهم. ولا تملك هذه العمالة أي أداة للإنتاج، فلا أرض ولا آلات، لكن اليد العاملة تعتبر العنصر المحدد في دائرة الإنتاج بحكم العمل الدقيق والمنهك الذي تقوم به. هذا العمل المضني الذي تتلقى العاملات مقابله أجرا هزيلا جدا، يتراوح بين 50 و75 درهما لليوم، حسب تصريحات العاملات الزراعيات بمنطقة سوس ـ ماسة.

تسجل المتابعة اليومية لهذا الملف، مشاهد بئيسة جدا، انطلاقا من نظرة المجتمع لهؤلاء النساء اللواتي تهاجرن بعائلاتهن بحثا عن العمل، لكنهن تصطدمن بكل أنواع الوصم وأحكام القيمة الجاهزة والاحتقار. مشاهد كذلك لحرمانهن من كل حقوقهن الأساسية، خصوصا تلك المرتبطة بالتغطية الصحية والاجتماعية.

الشهيدة غزلان، مثال حي لنتائج سياسات اللامساواة والتهميش التي تنهجها الدولة في هذا المجال، والتي أنتجت أساسا منظومة استغلال وإفقار مضاعفة تجاه النساء العاملات الزراعيات. تتحدث الكثير من تقارير المجتمع المدني عن التمييز المركب الذي تعيشه هذه الفئة، بحكم انتمائها لطبقة اجتماعية مهمشة، وبحكم كونهن نساء تعيشن هشاشة الفقر وخطر التعرض لكل أنواع الاستغلال الجنسي دون حماية قانونية أو اجتماعية.

ان وفاة غزلان ومثيلاتها في شروط مرتبطة بسياق العمل الزراعي الحالي، والتي لا تحترم الشروط الدنيا للحماية الاجتماعية والقانونية ولظروف العمل الكريمة واللائقة، تعتبر الوجه الحقيقي للانهيار الاجتماعي والإنساني نتيجة سياسة الدولة التي تكرس واقع التبعية والاحتكار والاستغلال.

إن هذه الوفاة المتجددة تجعلنا نحيي من جديد ملف الإصلاح الزراعي، الذي يجب أن يبنى أساسا على حق العمال والعاملات في الإنتاج، وذلك بفتح نقاش حقيقي حول السيادة الغذائية في هذا البلد ومدى استفادة اليد العاملة المنتجة من أرباح الأرض التي يعملون بها.

كوابيس الموت والعنف والاستغلال تجعلنا نساءل الدولة عن مدى حمايتها الاجتماعية والاقتصادية والقانونية لهذه الفئة، وعن مدى حمايتها كذلك لنمو وتطور الإنتاج المحلي وتحصينه من التبعية الرأسمالية وهيمنة الاستثمار الأجنبي.

غزلان الحالمة بإتمام دراستها في الضفة الأخرى، المنتمية بالصدفة للزاوية التي تعتبر مدرستها أول مدرسة عتيقة في المغرب، غزلان المكافحة والباحثة عن قوت يومها وسط الحقول والمزارع، غزلان تغادرنا وتترك جرحا آخر في ذاكرة المغاربة، غزلان عرت الواقع السياسي والاقتصادي الاجتماعي لبلد كان يجب أن يكون في المقدمة، لولا التسلط والقمع وسياسات اللاعدل واللامساواة التي تنهجها الدولة.

يبدو أننا مازلنا سنجفف دموع الكثير من الأمهات في هذا البلد.

# عدنان وداعة المقصلة..

لقد غرز الخبر الصاعقة نصله في شريان المغاربة ككل رجالا ونساء.. حين انتهت إلى مسمعهم تفاصيل اغتصاب وقتل الطفل عدنان، ودفنه بوحشية.. جريمة بشعة هزت أركان طنجة، وامتدت تداعياتها لوسائط التواصل الاجتماعي.

سيطر الرعب والإحساس بعدم الأمان على المحيطين بعائلة الضحية وبقية الأسر المغربية، خوفا على فلذات أكبادها من جريمة أخرى مماثلة. كما اعترى المغاربة غضب عظيم جعل الكثير ينادي ويطالب بالإعدام للمجرم، فتوسعت دائرة مناصري القصاص ولو من نفس صنف وحشية الجريمة.

يرجعنا هذا الحدث البشع، للمربع الأول لمطلب إلغاء عقوبة الإعدام من القانون المغربي، والذي ناضل من أجله المثقفون والحقوقيون والمجتمع المدني المغاربي، في مواجهة الموجة الهستيرية للمطالبين بإعدام الوحش في ساحة عمومية، وأمام الجميع، كما جاء على لسان الأكثرية، وهو مطلب وحشي في حد ذاته.

ليس لأحد الحق في سلب الحياة لآخر، كيفما كان وكيفما كانت جريمته، فالحياة حق مقدس، ألم يحن الوقت لاستيعابنا مفهوم الحقوق الإنسانية، ومقومات الدولة الحديثة والمدنية، والتي نطمح لنعيش في ظلها؟ ألم يحن الوقت لأن نستوعب أن نظام الغاب والوحشية الذي يتعطش البعض لتطبيقه، سيكون هؤلاء أول ضحاياه، حين يبدأ نصب المشانق في الأماكن العامة وفي الأسواق ووسط القبائل.. سيكون إذاك الوقت قد تأخر لتعود لمراجعة قرار تبني وحشية قرار القصاص بالدم.

بالنسبة لتصريحات العائلة والمحيطين بالضحية، فنحن نتفهمها، خصوصا جوانبها العاطفية والنفسية المشحونة، وهي ناتجة عن الصدمة غير المتوقعة، التي لحقت بهم جراء فقدانهم للطفل عدنان بتلك الطريقة الوحشية. لكن المجتمع المغربي، وخصوصا حكماءه، عليهم أن يعوا أبعاد مطالب القتل هاته، وأن تكون لهم المقدرة على تحليل مطلب الدم هذا، وعواقبه على المدى البعيد تحليلا منطقيا متزنا.

فمن المؤسف اختزال مطلب دعاة تطبيق قانون الإعدام، فقط على قاعدة قضية الطفل عدنان. المفروض فينا قبل أن نطالب بالإعدام أن نطرح سؤالا واضحا : "كم من مظلوم يقبع في غياهب السجن ؟".. من المؤكد أن الكثير من الأبرياء ملقى بهم في السجون، وليس في المغرب فقط، بل في جميع أرجاء العالم.. بل أن هنالك أبرياء في زنازن أكثر بلدان العالم حرصاً على الأمانة في تطبيق العدالة، والسبب هو أن العدالة ما هي إلا محاولة لتطبيق العدل من خلال القانون، والعدل هو قيمة إنسانية، أما القانون فهو ترسانة من نصوص وضعية بشرية. فالأكيد أننا سنكون أمام تعدد ضحايا هذا المطلب المهين للإنسانية، والحاط من كرامة الإنسان وحقه المقدس في الحياة ؟

وحتى لا نغرق في المثالية، بإعلاء الحق في الحياة فقط، فكل مجرم قاتل يجب أن ينال أقصى العقوبات، وهذا أمر مفروغ منه، وأمام بشاعةالجريمة، فمطروح علينا بإلحاح الوقوف بالمرصاد في مواجهة أي تقصير قضائي إن وجد، وعدم قبول أي شكل من أشكال التهاون أو التساهل مع المجرم، سواء تعلق الأمر بهذه الجريمة النكراء أو بأي جريمة أخرى

تمس إنسانيتنا، وتنتهك براءة الطفولة، وذلك بعدم السماح بالتخفيف عن هؤلاء المجرمين، أو التهاون باستعمال ثغرات الاضطرابات النفسية.

بالأمس معتقلي الرأي الذين تركوا عزلا لمصيرهم، واليوم يستفيق أناس ليطالبوا بتطبيق عقوبة الإعدام.. أيعقل كل هذا في بلد، يطمح لأن يضع قطاره على سكة الحقوق والديمقراطية والحريات ؟؟!

◆ رقية زعفاوي

# مبدأ الفوز والخسارة في الثقافة الرياضية المغربية

• عبدالرزاق حمادشي

تعالج هذه الدراسة بالتحليل والمناقشة موضوعا يحتل مكانة محورية ضمن القضايا الرياضية الراهنة، وهو مقرون بمبدأ الفوز والخسارة في الثقافة الرياضية المغربية أو بالأحرى نظرة الجمهور المغربي للخسارة والفوز المؤطران للتنافس الرياضي، تمت مقاربة هذه القضية من خلال التطرق إلى ثلاثة محاور كبرى، فأما المحور الأول فقد لامسنا من خلاله الإطار المفاهيمي المحدد للمبادئ العامة المؤطرة للنتائج الرياضية؛ (الفوز والخسارة والتعادل) فهذا الثالوث لا محيد عنه في الحقل الرياضي، كما أن هذا المحور أسهب في تحليل الخصائص الفلسفية والمعرفية التي ترسم معالم الانتصار/ الهزيمة / التعادل، مع تبيان أهمية كل ركن من هذه الأركان. أما المحور الثاني فقد تم تخصيصه لمبدأ الفوز في الثقافة الرياضية المغربية، والذي ستهدف إظهار مكانة الفوز في الثقافة الرياضية الوطنية عن طريق إبراز تفاعل الجمهور المغربي مع تيمة الانتصار. بينما قارب المحور الثالث مبدأ الخسارة في الثقافة الرياضية المغربية، محاولا استجلاء ومكاشفة مدى انفعال وتفاعل الجمهور المغربي مع وقع الهزيمة، مع توضيح الأشكال السلوكية لهذا التفاعل. وفي الخاتمة، تم وضع خلاصة عامة للموضوع لامست إشكاليات الثقافة الرياضية المغربية، مع تدقيق المسببات التي أدت إلى تباين التفاعلات العاطفية والتصورات الذهنية حول ثنائية الفوز والخسارة لدى الجمهور المغربي، وتم اختزال الأسباب في عنصري التعليم والإعلام، لاعتبارات زمنية. عموما حاولت هذه الدراسة إثارة هذا الموضوع وسبر أغواره من وجهة نظر بحثية تميل إلى الجانب الفلسفي والمقاربة الاجتماعية والهدف من إعمال الطريقتان هو الإقناع والإفهام اللذان يشكلان منطلقان أساسيان لتثبيت الأفكار والمعارف في ذهن المتلقي.

• عبدالرزاق حمادشي

## المحور الأول: التأصيل المفاهيمي للمبادئ العامة المؤطرة للنتائج الرياضية : (الفوز، الخسارة، التعادل)

لا يختلف اثنان في كون الممارسة الرياضية تتمركز حول ثلاثة أضلاع رئيسية لا غنى عنها، الفوز، الخسارة والتعادل، ولكل متغير من هذه المتغيرات مسبباته وملابساته الخاصة، فالفوز يقرن عادة بتحقيق نتائج إيجابية في المقابلات والملتقيات الرياضية التي يخوض غمارها الرياضي، فهو ثمرة عصارة جهده الذي بدله طوال سنين من التحضير والإعداد والقياس والتتبع والتقييم والتربصات، ويتخذ هذا الفوز صبغة تتويج بميدالية أو لقب معينين أو الإطاحة بخصم معين. والنتيجة المنبثقة عنه لا تهم بقدر ما تهم الفرحة التي تنتج عنه، أما الخسارة فهي حتى من الناحية اللفظية تشي بضياع شيء ثمين لم يقوى الإنسان على المحافظة عليه رغم سعيه الحثيث نحو ذلك، ويعزى هذا إلى ارتكاب خطأ معين أو غياب التركيز أو قلة التجربة والتنافسية أو الاحترام المبالغ فيه أو عدم إعطاء الشيء القيمة التي يستحق أو بفعل خارج عن كل هذه المؤثرات، مثل:التحيز التحكيمي، التغاضي عن إعطاء النقاط المستحقة، الطقس.. وهذه وقائع نادرة الحدوث ولا يمكن التعلل بها في كل وقت وحين، لأنها تصبح متقادمة مع مرور الزمن، ويتبلور مصطلح الخسارة في الحقل الرياضي، من خلال خاصية الهزيمة التي تعصف بآمال الفرق وتنفر الجماهير من متابعة الأحداث الرياضية، وتشكل مادة دسمة تتغنى بها أقلام الصحافيين إزاء الرياضات المحلية، والهدف الأساسي هو السعي وراء ممارسة النقد الإعلامي البناء، بغية تقويم ما أعوج وتصحيح المسار قبل فوات الأوان، فعنوان من قبيل "هزيمة نكراء تعرض لها الفريق الفلاني أو البطل الفلاني"، ليس الهدف منه الإساءة إلى سمعة ومرجعية الفريق أو البطل، وإنما يبتغي محاكمة أداء الفريق أو البطل داخل الميدان، من خلال مكاشفة مكامن الخلل ومواضع العطب التي حالت دون أن يحقق الإثنين نتيجة إيجابية، في أفق مساعدتهما على تجنب تلكم الأخطاء مستقبلا، (انتقاد الإعلام الإسباني لمنتخب بلاده، ساهم في تتويج إسبانيا بلقب كأس العالم لكرة القدم عام 2010)، بيد أن الخسارة كمكون رياضي، يحكم سير نسق المنافسات الرياضية، ولا ينفك يتجسد في صور عدة هناك إجماع عام حولها من قبل الرأي العام الرياضي المحلي والدولي، ويمكن إجمالها فيما يلي: خسارة لقب أو ميدالية في منافسة معينة، خسارة الفريق في مباراة معينة، عدم محافظة الفريق أو البطل على مكتسبات حققها في السابق، خسارة صفقة انتقال لاعب كرة القدم إلى نادي معين. كل هاته الصور وغيرها، تنم عن مدى قساوة الخسارة، فعلى الرغم من كونها تعتبر حقيقة مسلما بها في المجال الرياضي، إلا أن وقعها يظل كبيرا على نفسية اللاعبين والجماهير، فعبرها تتوسع مشاعر: الحزن، التذمر، البكاء، السخط،

الغضب، الضجر.. كما أنها كانت ولا تزال من العوامل المسببة لظاهرة الشغب في الملاعب الرياضية، أما التعادل فيعد أخف الضررين، على اعتبار أنه يبقي الكفة متساوية بين المتنافسين ويساوي من الناحية النظرية بين مقدوراتهم المورفولوجية والبدنية، فهو يبقي آمال وحظوظ الفرق قائمة في التأهل إلى مراحل متقدمة من المسابقات الرياضية، وهو قد أنجى فرقا عدة من الهبوط إلى الأقسام السفلى وانتشل مدربين كثرا من مقصلة الإقالة التي تلوح بها إدارات الأندية الرياضية، كلما تمادت الفرق في تحصيل النتائج السلبية، وفي ذلك تقزيم لدور المدربين، فالتعادل لا يختزل في هذه التوصيفات فقط، بل يمكن أن يتجاوزها بخلق الإثارة والتشويق، خصوصا عندما تشهد البطولات تساوي وتعادل في النقاط بين المتصدر والوصيف، مما يضاعف من حجم المشاهدات، لأن الجمهور بطبعه ميال إلى متابعة المنافسات الرياضية التي تعرف تنافسية عالية المستوى.

## المحور الثاني: مبدأ الفوز في الثقافة الرياضية المغربية

يعتبر الفوز أو الانتصار، أهم ما يصبوا إليه الرياضي في طريقه نحو تحقيق المجد والبطولات، فالتميز وحب الفوز غريزة فطرية جبل عليها بنو البشر على اختلاف خلفياتهم وتباين أعراقهم. فالفوز يتبوأ مقعدا مهم لدى الجمهور الرياضي المغربي، لما يبث في نفسية هذا الأخير من انشراح وابتهاج وسرور منقطع النظير، يدفعه نحو الاحتفال من خلال ارتياد الأزقة والأحياء والساحات العمومية، ولا أدل على ذلك: الخروج الذي واكب وصول المنتخب المغربي إلى نهائيات كأس العالم لكرة القدم 2018 بروسيا، وهذا الحدث غاب عنه الأسود منذ زهاء 20 سنة، بحيث يعود آخر حضور مغربي بالمونديال إلى عام 1998 بفرنسا، وأيضا الاحتفالات التي رافقت تحقيق الرجاء البيضاوي لوصافة كأس العالم للأندية لكرة القدم نسخة 2013، كأول فريق عربي يصل إلى نهائي هاته المسابقة. هكذا تتجسد قيمة الرياضة باعتبارها المتنفس الذي يلجأ إليه الجمهور عندما تتعاظم مشاكله الاقتصادية والاجتماعية، في ظل فقدانه للثقة في الحقول الأخرى (السياسات العمومية بصفة عامة)، لأنها لا تستجيب لانتظاراته، بينما تقوم الرياضة بإشباع حاجاته الشعورية، وتعمل على التفريج عنه بواسطة تقديم مباريات مشحونة بهاجس التنافس على تحصيل الفوز، والتسويق لمغرب معطاء يضج بالطاقات والمواهب الصاعدة التي يتم تهميشها. فتتويج بطل مغربي في محفل دولي أو قاري يجر المتتبع للمجال الرياضي نحو الافتخار به والاعتزاز به، لأنه حقق نتيجة وعطاء لم يقوى بعض السياسيين على فعله. ففي السنون الأخيرة استطاعت الرياضة المغربية أن تحقق نتائج وإن كان الجدال مازال قائما حول مدى استجابتها لتطلعات الجمهور، إلا أنها على الأقل كونت قناعة لديه بأن الرياضة بإمكانها الوصول إلى أشياء لم تستطع باقي القطاعات الحكومية الوصول إليها، فهي تحتاج (أي الرياضة) فقط إلى القليل من الدعم والاهتمام ليس إلا. إن تنامي ظاهرة الولاء والتعصب للأندية، زادت من عشق الجمهور لهاته الأخيرة فهو يسعى دوما ليراها تعتلي القمم بانتصارات متتالية، فالفوز في مخيلة الجمهور يعني بطريقة آلية التغني بسيمفونيات الانتصار، واستعراض العضلات أمام الخصوم، ويتم ذلك عن طريق تلاسن ومجادلة حبية تستهدف تعداد ألقاب الفرق والحصص التي فازت بها وإبراز لاعبيها وهلم

# مبدأ الفوز والخسارة في الثقافة الرياضية المغربية

• عبدالرزاق حمادشي

جرا، إن هذه الظاهرة (أي ظاهرة التعصب) نؤاخذ عليها مجموعة من النقط من أهمها؛ اعتبار اللاعب الذي يغير قميص الفريق بقميص الفريق الغريم بالخائن (حالة الوداد والرجاء المغربيين نموذجا). أيضا فالمشاهد الرياضي المغربي، عندما يرى رياضيا مغربيا يشارك في الألعاب الأولمبية والبطولات العالمية، فهو يتابعه بكل أحاسيسه ومشاعره ويتفاعل معه بكل جوارحه، فالمشاهدة عنده روحية تجعله منصهرا في جو المنافسة، ويمكن التدليل على ذلك بتفاعل الجمهور المغربي مع مباريات الأسود عند تسجيل الأهداف(معاينات حية من المقاهي)، ففي خضم هذه المتابعة يمني الجمهور النفس بأن يرى علم بلاده يرفرف عاليا في سماء المحافل الدولية، فهذا في اعتقاده يحيل على الافتخار والاعتزاز بوطنه الأم المغرب وروح الانتماء. فالفوز أو الانتصار وجهان لعملة واحدة لا تنفك تغادر ذهنية الجماهير المغربية، حتى اكتسبت صفة الإلزام، لأن المغربي بطبعه ميال إلى الدفاع عن وطنه وروح المواطنة لديه عالية ولديه غيرة كبيرة على بلاده ليس لها حد.

## المحور الثالث: مبدأ الخسارة في الثقافة الرياضية المغربية

لا يجادل أحد في كون القطاع الرياضي، يحتمل الهزيمة كما يحتمل الفوز، فالانتصار حقيقة بديهية في المنافسات الرياضية، والخسارة مسلمة متوافق عليها في التظاهرات الرياضية وإن تباينت عواملها ومرجعياتها، فقبول الخسارة يعد من أساسيات الروح الرياضية، والقصد هنا عدم الإساءة إلى الطرف المنتصر أو التنكيل به من سب وقذف لفظي أو القيام بتخريب الممتلكات العامة أو الخاصة بسبب خسارة فريق ضد فريق غريم له، كما حصل عندما أقصى فريق الرجاء البيضاوي نظيره الوداد البيضاوي في إطار مسابقة كأس العرب للأندية البطلة لكرة القدم دورة 2020، بحيث فور خروج أنصار الوداد البيضاوي من الملعب عقب انتهاء مباراة الإياب، أطلقت طائفة من هؤلاء الأنصار العنان للشغب والنشل وتكسير السيارات وإيذاء المارة.. نفس السيناريو وقع في ملاعب وطنية عدة، ويأتي ذلك كرد فعل عن خسارة تعرض لها فريق ضد فريق آخر وما يثير هذه النعرات هو استفزاز جمهور الفريق الفائز لجمهور الفريق المنهزم، مما يتولد عنه شغب وعنف في المدرجات وخارجها، يمكن أن يؤدي إلى سقوط قتلى ومعطوبين أبرياء لم يكن لهم لا ناقة ولا جمل في نشوب أحداث العنف، والساحة الرياضية المغربية حافلة بأمثلة عديدة من هذا القبيل؛ أحداث الشغب التي وقعت في مركب مولاي عبدا لله بالرباط وبوجدة.. إن هذه الوقائع وغيرها تدل على تعصب مترسخ في العقلية الرياضية المغربية، يستحيل إزالته بسهولة، لأن إرهاصات عدة ساهمت في صياغته، من ضمنها الإعلام، التعليم، نوعية القيم السائدة في المجتمع، التربية، أنماط العيش المختلفة داخل المجتمع الواحد.. وقد ذهب أحد النقاد الرياضيين العرب، إلى أن المجتمع العربي لم يرقى بعد إلى مرتبة المجتمع الرياضي، لأن الجمهور العربي لا يمتلك ثقافة الخسارة، هو يؤمن فقط بالفوز ولا شيء غيره. يتبين من خلال هذه المطارحة أن أحادية الاعتقاد بحتمية الفوز تخيم على مخيلة الإنسان العربي، مما يجعله قنبلة موقوتة تتأهب للانفجار كلما سمعت وشاهدت خسارة الفريق الفلاني أو البطل الفلاني، الجمهور الرياضي العربي عندما ينبذ الخسارة ويرحب بالانتصار فهو يصيب في مقتل كنه الروح الرياضية، التي تستسيغ الفوز والخسارة لأنهما يحيلان على جوهر الممارسة الرياضية. هكذا إذن تتبدى أمامنا أهمية تشبع الجمهور الرياضي بثقافة قبول الهزيمة، الإشكال لا يكمن عند هذه المحطة فقط من التحليل، وإنما تبقى المصيبة متجلية في نظرية ذهب إليها الأستاذ بدر الدين الإدريسي ملخصها: "أن العرب عندما يحققون إنجازا معين لا يعرفون كيفية المحافظة عليه، وإذا أخفقوا في تحقيق إنجاز معين لا يعرفون كيفية استثمار هذه النكسة في أفق الحصول على نجاحات في المستقبل."، وفي خضم هذه الدوامة اللامتناهية يغوص الجمهور الرياضي في معزوفة التمني وتسويق الأوهام والأحلام الوردية، فكيف لنا أن نقنع الجمهور بالصبر على الخسارة وهو الذي أنهكه توالي الهزائم والنكبات الرياضية (فشل المنتخب المغربي لكرة القدم في تحقيق لقب إفريقي ثاني منذ الأول الذي توج به عام 1976)، أي ما يناهز 44 سنة من الانتظار، وطوال هذا الوقت استنزفت مشاعر وأحاسيس الجمهور العربي والمغربي خاصة المتعطش للألقاب والتتويجات، التي غابت عنه لسنوات عدة، رغم المبالغ الطائلة التي صرفت بدون عقلانية. لهذا من اللازم علينا أن نلتمس للجمهور الرياضي المغربي العذر عند حديثنا عن مبدأ الخسارة في الثقافة الرياضية المغربية، ولكن هذا لا يمنع من مساءلة الذوق الرياضي المغربي الذي لا يقيم اعتبارا للهزيمة بالرغم من كونها من أساسات التنافس الرياضي.

تأسيسا على ما سبق يمكن القول، بأن الثقافة الرياضية بالمغرب تحتاج إلى تأهيل و تحيين، ولن يتحقق هذا الأمر من دون تكاثف جهود المؤسسات التعليمية والإعلامية، فلا يمكن بناء ثقافة رياضية معاصرة لدى الطلاب في ظل انحصار مادة التربية البدنية في الأنشطة الحركية ما يحتم ضرورة عودة الرياضة المدرسية لأوجها، دون إغفال المكون النظري الذي يستهدف تنمية المعارف والمعلومات الرياضية لدى التلميذ المغربي، فكيف سنصنع تلميذا يمتلك ثقافة رياضية متكاملة؟ ومعظم أساتذة التربية البدنية في البلد يركزون على أحادية النشاط الرياضي (كرة القدم أو كرة السلة أو اليد...)، ومنهم من يسلم كرة القدم للذكور وكرة السلة للإناث ويأمرهم بالانصراف للعب ويجلس هو على إيقاع الشاي المنعنع والأحاديث الثنائية، أبهذه الكيفية سنبني ثقافة رياضية لدى الشباب الصاعد، ناهيك عن المفاضلة التي يقوم بها بعض أساتذة التربية البدنية بين الإناث والذكور من حيث التقييم والتنقيط، بحيث يحتكمون إلى المعيار الجسماني وليس طبيعة الأداء وما مدى توافق حركات التلميذ المؤداة عضليا وعصبيا، فيتم الإجهاز على كل هذه المحددات ليحل محلها عنصر البنية الجسدية (بدين(ة)، قصير(ة)، طبيعة الأرداف، القامة..)، وهنا يرى الأستاذ والناقد الرياضي المغربي محمد الماغودي: "بأن أستاذ التربية الرياضية بالمغرب يحتاج إلى إعادة التكوين، على اعتبار أنه يكون عادة متخصصا في صنف رياضي معين ويطلب منه تلقين الطلبة مختلف التخصصات الرياضية الأخرى، وبالتالي فهو ملزم بأن تكون ثقافته الرياضية واسعة وملما بالجوانب التقنية المؤطرة لكل الأنواع الرياضية، وهذا رهين بتحديث البرامج الإعدادية والتحضيرية والامتحانات المتعلقة بولوج مهنة تدريس مادة التربية الرياضية."، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يلعب الإعلام الرياضي بمختلف صنوفه دورا محوريا في تنمية الثقافة الرياضية المغربية من خلال تناوله لموضوعات وقصصات صحفية، توثق لأهم الأحداث الرياضية وتفسر وتحلل أهم الظواهر والمستجدات التي تعتري المشهد الرياضي المحلي والدولي وتقدم معلومات حول أبرز نجوم الرياضة، وتقرب المتلقي من أهم المشاكل التي يتخبط فيها المجال الرياضي، عن طريق الاستعانة بخبراء وباحثين يعملون على محاولة صياغة مقترحات حلول بديلة لهذه المنغصات، وإجمالا نستطيع القول بأن الإعلام هو في شموليته محاولة إحداث أثر، هذا الأخير قد يكون إيجابيا كما قد يكون سلبيا، فالإعلام الرياضي المغربي لطالما كان يركز في تغطياته الصحفية وقصاصاته الإخبارية على كرة القدم، وكأن الرياضة تختزل في الجلد المدور فقط، أمام هذه المعضلة صرنا أسيرين لتيمة "كروية المشهد الرياضي المغربي"، كما ذهب إلى ذلك الأستاذ منصف اليازغي في إحدى ندواته الالكترونية، أي أن المتلقي المغربي لرسائل ومواد الإعلام الرياضي لا يحيد عن كرة القدم، فغيرها من الرياضات لا يعني له شيئا، كرة القدم بالنسبة له وهذه قناعة زكاها في عقليته الإعلام حتى أضحت قاعدة تكتسب صبغة الإلزام، هكذا تقلصت الرياضة في نشاط بدني اسمه كرة القدم، فكيف لنا أن نتصور امتلاك الجمهور لثقافة رياضية رفيعة؟ هذا ضرب من الجنون، والواقع يشهد على تجذر أحادية النشاط الرياضي في الذهنية المغربية. ولتجاوز هذه المطبات يتوجب على الدولة التخلص من النظرة الدونية التي تنظر بها إلى القطاع الرياضي، فهي تدخله في مصاف الأشياء الثانوية والموجهة إلى الترفيه، مع العلم أن الرياضة تعد قطاعا اقتصاديا قائما بذاته، لو جرى استغلاله وتوظيفه بشكل منظم وهادف سيؤدي إلى تنمية موارد الدولة المالية من خلال المداخيل التي سيضخها في موازنتها العامة، كما سيوفر فرصا للعمل للعديد من الشرائح الاجتماعية، وبالتالي سيقلص من معدلات الهجرة غير الشرعية في صفوف الشباب، وسيخفض من معدلات البطالة، وهكذا سيحسن من وضعيتهم الاجتماعية والاقتصادية، إذن فالرياضة قطاع إستراتيجي وحيوي يجب التركيز عليه كقاطرة تنموية ومحرك للاقتصاد الوطني، وليس وجها من وجوه التسلية والمتعة فقط. فهل يا ترى ستعيد الدولة الاعتبار للحقل الرياضي في القادم من السنوات أم أنها ستواصل العزف على موال الإهمال واللامبالاة؟

**ملحوظة: سيتم نشر هوامش المقالة في النسخة الالكترونية www.attarik.net**

# الثقافي الطريق

## (إبداع وفنون)

◆ إعداد: عبد الغني عارف

## الخطيبي وفلسطين

◆ مراد الخطيبي

## تلويحة الأيدي!

◆ رباب هلال _ دمشق

## الحياة الدفينة

◆ عبير ابراهيمي

## شهداء صبرا وشاتيلا ينهضون من قبورهم..

ترددت كثيرا قبل أن أوقد شموعا خاشعة لأرواح اللواتي والذين حصدهم المجرمون الأهماج في مجزرة صبرا وشاتيلا التي حلت ذكراها اليوم. ترددت كثيرا لأن الشاعر جيرار دو نرفال نصحنا بألا نوقظ الموتى ما لم نكن جاهزين لاستقبالهم كما يليق بشعب الشهداء الجليل. فكيف يمكن للكلمات أن تتجاسر على إيقاظ من أجهز عليهم التقتيل بفظاعة زلزلت أسس الموت نفسه، وخلخلت فكر جان جونيه حين هرع إلى هناك، بينما كانت الجثث ما تزال مجندلة في الدروب والبيوت البائسة، ووثق الهول في نصه القيامي "أربع ساعات في شاتيلا" ؟ وترددت أخيرا لأنه ما من إشارة معزّيَةٍ يمكن تقديمها لأطياف البريئات والأبرياء إذا ما أدركوا بارتياع أن المذبحة التي غدرت بهم في ليلة الدم الطويلة كانت مجرد نذير رهيب بالزلزال الجيوسياسي الذي أعقبها، والذي واستمرات هزاته الارتدادية بلا هوادة إلى أن تقلب جميع الشهداء في قبورهم الجماعية بفعل التطبيعات الخذلانية الجارية في هذه المرحلة العصيبة..

في المرآة...

# التنوير الثقافي... من أجل مقاومة مجتمع الخرافة

◆ ذ. عبد الغني عارف

التنوير.. التنوير... !

إنه النداء الذي ما ننفك من ترديده كلما أثير الحديث عن متطلبات التغيير وشروطه. نداء يستمد مشروعيته من أطروحة ترى أن عوائق التغيير الأساسية لا تتمثل في نوعية القوانين والتشريعات ولا في أنماط السلط وشكلها، بل في طبيعة الذهنيات السائدة في التربة الاجتماعية المراد تغييرها. فكلما كان المجتمع غير مؤطر بقيم العقل كلما تراكمت فيه حواجز الإصلاح وتقوت، ضمن مؤسساته المادية والرمزية، أشكالُ وقنواتُ مقاومة التغيير، وهذا شأن المجتمعات التي تسود فيها الذهنية الخرافية بحيث إن هذه الذهنية تخلق لدى الأفراد والمجموعات استعدادا وجدانيا لتقبل الواقع كما هو، في نوع من الرضى والاستسلام المؤسسين على اعتقادات خاطئة، ولكنها، مع ذلك، اعتقادات تؤمن لأصحابها طمأنينة روحية غامضة، حتى وإن كانت في العمق طمأنينة وهمية، مؤقتة وزائلة، ولذلك يتم البحث عن حلول للهزائم الذاتية وللمشاكل التي يواجهها الأفراد في الحياة عبر الاستكانة للتقاليد الجامدة والارتماء في أحضان الأصوليات العقدية والإثنية، أو عبر الالتجاء للخوارق من خلال مؤسسات ووسائط ميتافيزيقية ( زوايا، أضرحة، شعوذة، طقوس غيبية...) توجد خارج الشروط الموضوعية للواقع ودون ربط الظواهر الاجتماعية بأسبابها الحقيقية. وهذا الوعي الارتكاسي يشكل بالضرورة عقبة كأداء أمام كل محاولات التغيير.

ولعل ما يثير الانتباه أكثر هو أنه على الرغم من أن الفكر الخرافي بكل تجلياته وتعبيراته السلوكية المؤطرة بالإيديولوجيا المحافظة، يتناقض ومنطق الواقع المعاصر ولا ينسجم مع متطلباته، فإنه مع ذلك ما يزال يجد مرتعا له للتنامي والتوسع والامتداد. وما كان لهذا الأمر أن يتحقق لولا الإصرار المسبق من لدن جهات معينة على استدامة شروط استمرار حياة المجتمع الخرافي، لما ينطوي عليه ذلك من إمكانات تنميط وعي الناس ونمذجته، عبر آليتي الجهل والتضليل، من أجل خلق استعداد مسبق لديهم لقبول الواقع كما هو.

إن مجتمع الخرافة يجد دائما المبررات التي تسوغ شروط المحافظة على الأوضاع القائمة، ولذلك كانت السلط القائمة على الاستبداد، وعبر التاريخ الإنساني، تكرس دوما بنية الخرافة باعتبارها أداة لطمس الوعي وتشويهه، إذ كلما كانت هواجس الأفراد وميولاتهم الذهنية خرافية، كلما سهل التحكم فيهم وتوجيههم وفق ما تمليه مصالح الأسياد ومتطلبات الاستعباد. وهذا ما يفسر كون سلط الاستبداد، عبر تجارب الشعوب، تخاف دائما من كل ما له علاقة بالعقل والنور والعلم في صورته المادية الملموسة. ألم ينبه "عبد الرحمن الكواكبي" ذات صيحة نهضوية مبكرة إلى أن " المستبد لا يخاف من العلوم الدينية المختصة ما بين الإنسان وربه، لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة..." بقدر ما " ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية.. " لذلك فالمعركة بين المتطلعين للأنوار والتغيير من جهة، وحماة الظلام والمحافظة من جهة أخرى، هي معركة قائمة باستمرار مادام في المجتمع صراعٌ وتناقضٌ بين الطبقات والمصالح.

وفي سياق هذه المعركة بالضبط تندرج مسؤولية المثقفين المفترض فيهم أن يكونوا تنويريين وحداثيين، أي مسؤولية نشر ثقافة التنوير و" التبشير " بها ودعم مهمتها المتمثلة في تقويض وإزاحة الطبقات والصفائح المتكلسة في تربة المجتمع، والتي هي، باستمرار، طبقات مناوئة لمرور مياه التغيير ومعطلة لفرص الفكاك والانعتاق من كل القيود التي تلجم طاقة الأفراد وتحد من حريتهم في استعمال العقل والتفكير الحر.

إن مسؤولية المثقفين هنا واضحة، وأي إغفال لها لا يعدو كونه هروبا وتملصا من جوهر المهام الملقاة على عواتقهم، فلا يمكن إحداث تغيير حقيقي لبنيات المجتمع المتهالكة والمتجاوزة تاريخيا بدون رجة ثقافية تمس الذهنيات والتمثلات والقيم السائدة، مع الوعي التام بأوليات عملية التغيير باعتبارها عملية مركبة ومتداخلة الحلقات.

ولأن التنوير ليس رفضا مطلقا أو عدميا لمعتقدات بعينها بقدر ما أنه دعوة إلى فهم تلك المعتقدات، بل وإلى فهم حقائق الوجود ككل، فهما عقلانيا يواكب نمو الفكر الإنساني وينسجم مع سيرورة تطوره؛ فإن معركة التنوير، هي في العمق معركة ثقافية وتربوية بالأساس، أي معركة تتخذ من الفكر والقيم والعلوم الطبيعية أداتها الرئيسة في مواجهة أعداء التغيير وخصومه، وذلك عبر استنهاض الإرادات وتحرير العقول من كل أشكال الحجر والظلام.

إن ثقافة التنوير تتيح الفرصة للعقل الإنساني لينطلق ويبدع متحررا من كل أشكال التضييق الجاهزة سلفا، كما أنها ثقافة تخلق البيئة المناسبة لتنمية الوعي بموضوعية الواقع وبالقدرة على امتلاك أدوات التمرد ضد سلبياته وتشكيل صورة بديلة له، عبر الوعي بالأسباب الحقيقية لتلك السلبيات، وعبر النقد والانتقاد والمساهمة الفعلية في حركية التغيير والاصطفاف الصريح إلى جانب قيم العقل والعلم والحداثة.

# صورة فلسطين في كتابات الكاتب والمفكر عبد الكبير الخطيبي

• مراد الخطيبي

ظلت فلسطين حاضرة دائما في الكتابات الأدبية والإبداعية والفكرية للشعراء وللكتاب المغاربة. يتجلى هذا الحضور من خلال أقلام نشأت في سياق سياسي دقيق وتكونت أيضا داخل أسوار الجامعة المغربية وكذا الجامعات الأجنبية و عبر بعض الاتحادات والتنظيمات الطلابية ومن خلال الاحتكاك بمرجعيات فكرية وإيديولوجية لها قيمة كبيرة. غير أنه لا بد من الإشارة إلى أن هزيمة 1967 كان لها تأثير كبير على درجة حضور فلسطين في هذه الكتابات. ويمكن اعتبار مجلة "أنفاس Souffles " أهم شاهد على هذه المرحلة حيث حملت أعدادها الأولى عدة نصوص شعرية ونثرية حول فلسطين وقضيتها كتبها شعراء وكتاب مغاربة من بينهم :عبد اللطيف اللعبي ومصطفى النيسابوري وعبد الكبير الخطيبي ومحمد خير الدين و والطاهر بنجلون. ولا بد من التأكيد في البداية على أن مجلة 'أنفاس" "Souffles " المغربية ، التي كانت تصدر خلال مرحلة الستينات والتي اتخذت "فلسطين وتخليص الثقافة من النزعة الاستعمارية" شعارا لها خاصة بعد هزيمة 1967 شكلت ملهما أساسيا للكتاب المغاربة من أجل تناول القضية الفلسطينية سواء شعرا أو نثرا. المجلة كما هو معروف كان قد أسسها الشاعر والمناضل السياسي عبد اللطيف اللعبي والناشط السياسي أبراهام سرفاتي واللذان اعتقلا معا خلال حكم الحسن الثاني ملك المغرب وتوقفت عن الصدور بأوامر ملكية. وهناك نص شعري للشاعر عبد اللطيف اللعبي يلخص الخط التحريري للمجلة من حيث ارتباطها بالقضية الفلسطينية وقد صدر في عدد خاص من مجلة "أنفاس" تحت عنوان: "كلنا لا جئون فلسطينيون Nous sommes tous des réfugiés Palestiniens". وقد شكلت فلسطين نوعا من الرغبة لدى هؤلاء الكتاب المغاربة في تخليصهم من النزعة الاستعمارية. ولا زالت، رغم سطو أولويات أخرى ، تعتبر فلسطين مثالا صارخا للقهر والعيش تحت وطأة الاستعمار بقسوته وظلمه. وكان الحديث عن فلسطين يتم عبر مقارنتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مع الاستعمار الفرنسي والإنجليزي اللذان جثما لسنين عديدة على دول المغرب العربي مثل المغرب وتونس الجزائر وظلت فلسطين تمثل لهذه البلدان ومنها المغرب قضية مركزية نظرا لتزامن وجودها تحت الاستعمار مع احتلال فلسطين من طرف اسرائيل.

مراد الخطيبي

وحتى بعد استقلال المغرب بقيت فلسطين تحتل مكانة مهمة في وجدان المثقفين المغاربة وفي كتاباتهم لأن الآمال المنشودة لم تتحقق ربما رغم الاستقلال. يمثل المؤلفان "الحمى البيضاء Vomito blanco " و " نفس الكتاب Le même livre" بشكل واضح ودقيق مساهمة عبد الكبير الخطيبي الفكرية حول القضية الفلسطينية في سياقات تاريخية مختلفة توازي تواريخ صدورهما.

## • "الحمى البيضاء:Vomito blanco":

أصدر عبد الكبير الخطيبي هذا الكتاب سنة 1974 وأعاد إصداره فيما بعد ضمن مؤلفه الآخر الموسوم ب: "Paradoxes du sionisme" أو "تناقضات الصهيونية" وقد حدد من خلاله موقفه من الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي. في المقدمة ، يوضح عبد الكبير الخطيبي انه كتب هذا المؤلف في شهر يوليوز 1973 أي قبل اندلاع الحرب الإسرائيلية- العربية بدافعين إثنين ، الأول يتمثل في" أسبوع الأردن الأحمر La Semaine Rouge de Jordanie والثاني أحداث "أيلول الأسود بميونيخ -Le Sep tembre Noir à Munich ".

وبالتالي فمشروع الخطيبي من خلال هذا المؤلف هو تقديم رؤية نقدية للصهيونية باعتبارها "وعيا شقيا Une conscience malheureuse " وأيضا انتقاد الموقف الفرنسي ، خاصة اليسار من القضية الفلسطينية عموما. يقول عبد الكبير الخطيبي: " لماذا يصرون على القضاء على الشعب الفلسطيني ؟ وما طبيعة الصهيونية؟ وما سبب انتشارها في الوعي الغربي؟ ولماذا لا يلتفت إلى علمية الإبادة التي يتعرض لها الفلسطينيون؟ ألا يسود الصمت حول الجرائم الصهيونية، بينما تفضح المقاومة ويشنع ما تقوم به؟ فهل يرجع الأمر إلى تحويل للشعور بالذنب؟ وهل يتم باسم قيم النزعة الإنسانية البرجوازية؟ وبالضبط لماذا كل هذا التغاضي وسوء النية الذي يبهر الأعين؟"

نقد الصهيونية يربطه الخطيبي أيضا بمسائلة اليسار الفرنسي الذي اتسم موقفه بالتذبذب والغموض في الآن نفسه.

بالرجوع إلى حرب 1973 يشير الخطيبي إلى أن العرب كانوا واضحين في مبرراتهم فقد كانوا يهدفون إلى استرجاع الأرض

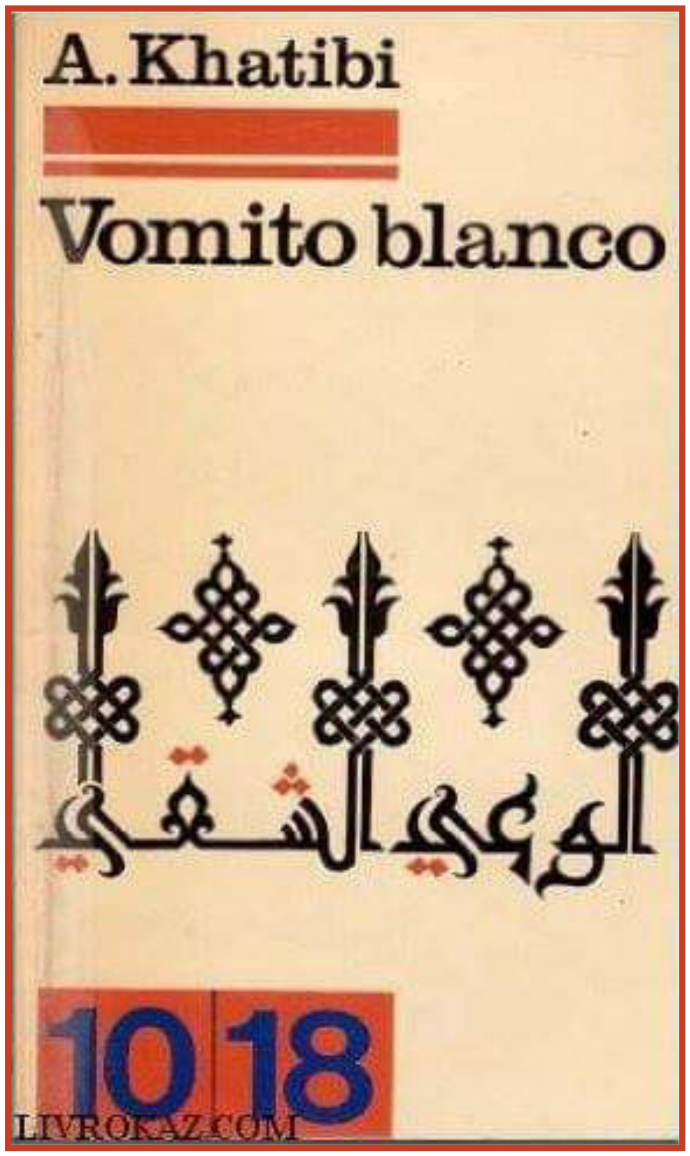


المحتلة وإنهاء السيطرة الصهيونية أما الإسرائيليون فتتمثل رغبتهم في الاستمرار في تمثيل الغرب في المشرق مع طرد الفلسطينيين من أرضهم، والصهيونية في نظر الخطيبي تعيش دائما على ذكرى الإبادة التي تعرض لها اليهود من طرف النازية. وقد رد عبد الكبير الخطيبي من خلال هذا المؤلف و بشكل مباشر وواضح على أطروحات سارتر و النخبة الفرنسية و الغربية اتجاه المسألة اليهودية والتي تصور اليهودي ضحية على حساب الفلسطيني و العربي بشكل عام. وقد خصص الخطيبي فصلا تحت عنوان " دموع سارتر Les larmes de Sartre تهكم فيه من مواقف سارتر المتذبذبة والمهزوزة اتجاه فلسطين والفلسطينيين. يقول عبد الكبير الخطيبي: " إن سارتر يخاف ان يتهم إسرائيل . وخوفه في هذه الحال ممارسة للخير. إنه يبكي بجد مثل طفل خذله الخوف فأصبح عاجزا عن أن يدنس وجه الأب (أو الأخ) اللامتناهي الطيبوبة، اللامتناهي الاثم." و يشكل هذا المؤلف انتقادا أيضا لطروحات ألبير ميمي الذي لم يقف ضد ما مورس من تهميش وعزل للفلسطينيين بعد إنشاء دولة اسرائيل. وعلى عكس الكثير من الباحثين، انتبه عبد الكبير الخطيبي إلى الاختلاف الذي يوجد بين الدين والسياسة وبالتالي فالصراع العربي-الإسرائيلي بالنسبة إليه هو صراع سياسي أساسا لكنه مغلف بلباس ديني من خلال بعض المصطلحات والمفاهيم الدينية التي يتم توظيفها اعتباطيا. كما أن صورة ابراهيم يتم استعمالها بشكل قدحي لتبرير الحروب. الخطيبي يسعى من خلال تعميقه لمسألة النبي ابراهيم أن ينتقد بشدة الصهيونية. وبالتالي ففلسطين في نظر الخطيبي هي بمثابة "أفق للتفكير" مثلها مثل المغرب (المغرب العربي).

# صورة فلسطين في كتابات الكاتب والمفكر عبد الكبير الخطيبي

◆ مراد الخطيبي

## • "نفس الكتاب"( Le même livre ):

مؤلف "نفس الكتاب Le même livre " صدر سنة 1985وهو عبارة عن مراسلات كتبت خلال الفترة بين 1980 و 1984 بين عبد الكبير الخطيبي والكاتب المصري اليهودي جاك حسون، وتتمحور بشكل أساسي حول المسألة اليهودية-العربية. مؤلف مشترك بين مثقفين اثنين، أحدهما ينتمي إلى أسرة يهودية من الإسكندرية وهو جاك حسون والآخر ينتمي إلى أسرة مسلمة من المغرب ومن مدينة الجديدة تحديدا وهو عبد الكبير الخطيبي.

هذا الكتاب هو بمثابة 'تمزق' (Déchirure) بمفهوم الخطيبي. هذا التمزق هو تمزق 'الأصل' بكل حمولاته الثقافية والدينية والأثنية وهو المفتاح الذي يمكن من خلاله مناقشة ازدواجية اللغة (الفرنسية والعربية/العبرية) وكذا الحديث حول التفرقة الاستعمارية بين اليهود والمسلمين.

في مؤلفه "الناسخ وظله Le scribe et son ombre " وهو مؤلف عبارة عن سيرة فكرية وأدبية ترصد كل الروافد والمحطات التي ميزت مسار المفكر والأديب عبد الكبير الخطيبي، يعود ليذكر بالأهداف من إصدار " Le Même livre".الهدف الأول هو التعارف أو بالأحرى من أجل التعارف أكثر. ثم أيضا وهذا الهو المهم في نظره المشاركة والمساهمة في النقاشات التي كانت تدور حول الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني. انبثقت فكرة الكتاب من حوار تم بين عبد الكبير الخطيبي وجاك حسون حول موضوع « Les lam-beaux de la langue maternelle » واللغة بالنسبة لكليهما هي اللغة العربية ،وهما معا تعلما اللغة الفرنسية في المدرسة. هاته اللغة التي تصبح فيما بعد لغتهما الثانية ولغة الكتابة لكليهما.

يقول الخطيبي أن نقاشه مع صديقه جاك حسون كان نقاشا متسما بالوضوح التام ومنفتحا على جميع المحاور التي ترتبط بالوضعية الكارثية التي يعيشها الشعبان والتي استدعت بالضرورة توجهات وتصورات مختلفة للمثقفين من شتى أنحاء العالم. و يرى أن الصداقة الفكرية التي نسجت بينه وبين جاك حسون من خلال كتابهما المشترك تحددت ضمن عدة مستويات أهمها الانتقاء الشديد للكلمات، التشظي و الاهتمام بقوة العلامات .Signes صداقة فكرية ترسخ لآداب حسن المعاملة والقبول بالآخر وتقبل الاقتراحات والرد عليها بكل وضوح وحرية. ومن أهم المواضيع التي تناولتها المراسلات بين المفكرين موضوع الصراع السياسي والعسكرين اليهودي- العربي . وفي هذا الصدد، عبر الخطيبي عن استيائه من اجتياح لبنان سنة 1982 من طرف اسرائيل بقيادة شارون وبالتالي فالخطيبي يرى أن اسرائيل من خلال هذا الحدث تسير نحو المسار الذي اتخذته منذ إنشائها والذي يتسم بإلغاء الآخر L'exclusion de l'autre والقتل وتدمير الصهيونية الذاتي باعتبارها إيديولوجية الدولة العسكرية و دفع العرب نحو نقطة عدم الرجوع. بخصوص القضية الفلسطينية وما تعيشه من مآزق تتحملها بالدرجة الأولى إسرائيل أو الصهاينة تحديدا كما جاء على لسان الخطيبي، يحمل الخطيبي المسؤولية أيضا للدول العربية التي تبقى في نظره عاجزة على مواجهة الوضعية ومنح الفلسطينيين واليهود إمكانية الاعتراف المتبادل مادام هناك شعبان وأرضان وقوتان رغم التناقض البين بينهما. ما يجب أيضا التأكيد عليه هو رغم ما تتسم به الطروحات التي قدمها الخطيبي من خلال هذه المراسلات بخصوص القضية الفلسطينية من عقلانية وموضوعية إلا أن جرائم إسرائيل المتكررة منذ إنشائها جعلته يتخذ موقفا فيه كثير من الاستياء والأسى والرفض. و يتساءل في هذا السياق بنبرة حزينة ومنتقدة لإسرائيل على انتهاكاتها المتتالية وعدوانها ومواصلة مسلسلها في التقتيل و الإرهاب : ما ذا تريد إسرائيل ؟ الأرض؟ فقد حصلت عليها ، هل تريد اسما؟ لقد حصلت عليه، الاعتراف ؟ حصلت عليه، ولذلك يرى الخطيبي أن ما تقوم به اسرائيل في حق الفلسطينيين شنيع جدا. نقطة أخرى وجب التنصيص عليها بخصوص هذا المؤلف هو أن الخطيبي عندما يناقش القضية الفلسطينية فإنه يتكلم عن الفلسطينيين واليهود لكونهم يتقاسمون نفس الأصل الإبراهيمي. وفي الآن نفسه، فالخطيبي لا يشير إلى "الصهاينة" إلا عندما يصف فداحة أخطائهم وشناعة أفعالهم وهذا دليل على أنه لا يعترف بهم إلا باعتبارهم يشكلون منظمة عنصرية وسياسية وإيديولوجية تسعى إلى إلغاء الآخر بكل الطرق الممكنة من تشريد وقتل وتهجير وذبح.

## • خاتمة:

يستنتج من المشروع الفكري للمفكر عبد الكبير الخطيبي بخصوص فلسطين باعتبارها قضية للتأمل والحوار أنه ينقسم إلى قسمين متصلين على مستوى الأفكار والطروحات المقدمة . ففي مؤلفه الأول" Vomito blanco" الصادر سنة 1974 ، تناول الخطيبي فلسطين من خلال دحضه لادعاءات الصهاينة بخصوص مبررات إنشاء دولتهم وانتقاده لكل مؤامراتهم وجرائمهم ودفاعه عن الفلسطينيين لكونهم أصحاب حق ومن خلال كذلك سخريته وأسفه من الموقف الغريب لليسار الغربي والفرنسي تحديدا لكونه لا يرى الأمور بالموضوعية اللازمة ويرى الفلسطينيين رمزا للظلم والبطش بينما العكس هو الصحيح. كما انتقد أيضا في هذا السياق وبسخرية شديدة أصحاب الفكر الحر ومنهم المفكر والفيلسوف الفرنسي اليهودي جان بول سارتر على موقفه السلبي بخصوص القضية الفلسطينية. أما في مؤلفه الثاني" Le même livre" الذي صدر سنة 1985 بصفة مشتركة مع صديقه المفكر اليهودي العربي جاك حسون ، فقد واصل الخطيبي انتقاده القوي لإسرائيل لكونها دولة قامت منذ تأسيسها على القتل والبطش وإلغاء الآخر المتمثل في الفلسطينيين. بيد أنه وانطلاقا من الوضع الجديد وسائر التحولات التي طرأت والمتسمة بالحروب المتكررة والقتل ، فإنه يدعو إلى سلم عادل يجمع الفلسطينيين واليهود وينهي زمن الحروب والدمار . ويجب التأكيد أيضا أن الخطيبي في هذا المؤلف يتناول وضعية الفلسطينيين في علاقتهم مع اليهود باعتبارهم ينتمون جميعهم إلى نفس الأصول ولا يعترف بالصهاينة لكونهم ينتمون إلى منظمة إرهابية وعنصرية.

# دفاعا عن الهامش

# تحليل سميائي وفق ثنائية المركز والهامش

• عبد الهادي أبا غانم

تعد السميائيات من أهم الدراسات الوصفية والموضوعية والعلمية المهتمة بمقاربة مختلف أشكال الخطاب، وذلك قصد المعرفة والاطلاع على طرائق أنساق المعنى وتوليده والتوصل إلى البنى العميقة، كونها تمثل الدرجة الأعمق في الوعي المعرفي، وكذا في قدرة الإنسان على اكتساب المعلوم من المجهول، وفي التصنيف الواعي الذي ينظم المعرفة بمختلف أشكالها وأنواعها، بل تتجاوز ذلك إلى فهم الواقع وسبر أغواره، باعتبارها علما يحتضن الواقع عبر أيقونة تمتص عيوب المجتمع. إنها البحث في ما قبل (الإنتاج) وفي الأثر (الانعكاس)، إذ نستحضر الرؤية المنهجية حول العلامة التي نظر إليها

د "سعيد بنكراد" في أن التجربة الإنسانية تشتغل بمختلف أبعادها كمهد للعلامات: لحياتها ولنموها ولموتها أيضا، كما أنها تشتغل أيضا كمصدر لسلطة المعنى المشترك "فلا شيء يفلت من سلطان العلامة ولا شيء يمكن أن يشتغل خارج نسق يحدد له سمكه وطرق إنتاجه لمعانيه ولا وجود لشيء يخلق حرا طليقا لا تحكمه حدود ولا يحد من نزواته كنسق".

ومادام الإنسان كائنا منتجا ومستهلكا فهو يتحرك بالعلامة السميائية ويخضع لسلطتها وقهرها، وإنه لأمر عميق وإشكالية ثقافية كبرى تضعنا أمام زخم من التساؤلات الهامة، لعل أبرزها مدى بقاء السميائيات نظاما معرفيا يدرس في المؤسسات وهو أحد الأنساق المعرفية الواقعية الاجتماعية التنويرية...

لقد طفت على سطح المجتمع المغربي مجموعة من الاحتجاجات، التي شكلت حالات من الغليان بالمغرب وعلى رأسها نجد الأزمة الضاربة والهجمة القصدية التي توجهت نحو المجال التربوي التعليمي، سببتها عقدة فرضت على جميع الأساتذة، الشيء الذي اتجه إلى تشكل أزمة متجذرة أدت إلى توتر الأوضاع وتدهورها سواء على المستوى المادي أو على المستوى المعنوي النفسي، وذلك نتج عن علامات العنف والقمع الممنهج ضد الجماهير التربوية المسلوبة حقوقها، التي تخول لها شروط عمل موضوعية بعيدة عن ظروف عمل العبودية والاستغلال.

وتمثل هذه الوضعية العديد من العلامات السميائية وشكلا من أشكال الاحتجاج الرافضة لما يسمى بالتوظيف (بالكونطرا)، وعدم الرضى بقوانينها وكذا العزوف عنها، باعتبارها فرضت بشكل جذري. إنه الأمر الذي جعل هذه الفئة تثور ضد هذه السياسة القهرية، متدفقة برمزيتها الأخلاقية في رفض شامل لكل أشكال الظلم والإذلال والعبودية والقهر التي تقع على المواطنين من أبناء الأمة أو الشعب، لأن كل احتجاج أو ثورة غالبا ما تكون ثورة المظلوم ضد الظالم، والمغلوب ضد الغالب، والمقهور ضد القاهر، طلبا للعدالة الاجتماعية، وصونا للحقوق الإنسانية، ورفضا لكل أشكال التعنت والتغلب والقهر. إذ نجد هذا حاضرا في تصريح "كارل ماركس" حول طبيعة التاريخ الإنساني على أنه تاريخ قائم على الصراع بين الطبقات الغالبة والمغلوبة، أو تاريخ بين الظالمين والمظلومين، وكذا تصريح "ماركوز" أن الاحتجاج بمعانيه المختلفة ودلالاته المتنوعة، كانت وما زالت سبيل الشعوب المظلومة إلى الحرية والكرامة نبذا لكل أشكال الظلم ورفضا لكل تجليات العبودية، الأمر الذي يبقينا أمام تأويلات سميائية مطلقة.

وفي هذا الصدد، ارتأينا مقاربة دلالات هذه الوضعية انطلاقا من رؤية تأويلية تدخل ضمن تصور وتحليل سميائي، وفق مبدأ من مبادئ الكون السميائي التي وضعها السميائي الروسي "يوري لوتمان"، المتمثلة في ثنائية المركز والهامش باعتبارها جدلية تحدث صراعا

وتطاحنا مستمرا، حيث إن مفهوم "المركز" هو تصور يقوم على التمايز والتعالي وتقديس الذات وسيادتها باعتبارها مركزا للإشعاع لأنه ينفي إمكانية التواصل والحوار المتكافئ، على أساس امتلاكه (للقوة ) لا يحاور بل يسيطر ويفرض ويهدد أيضا، ومما لا شك فيه فإن آليات السلطوية كرست نمط التبعية الدائمة لها فزادته سيادة وسيطرة وزادت الأطراف الهامشية "الهامش" تبعية وتهميشا. إنها ثنائية ضدية معكوسة تشتغل ضمن مجموعة من التناقضات ممثلة (الثنائية الضدية المتصارعة)، كونها من أكثر المفاهيم إثارة للجدل في علم السميائيات، وكونها أيضا المبدأ الأساس المتحكم في تنظيم كل كون ثقافي، فالثنائيات واللاتماثل يشكلان حسب " يوري لوتمان" القوانين الجوهرية الضامنة لانسجام كل نسق سميائي .

إن تأويل أو وصف أي ظاهرة كالزمن والثقافة واللغة، تكون فيه التقابلات الثنائية المتعارضة أداة مهمة لاختزال الممتد باستمرار وجعله صريحا مباشرا، وأن التضاد أداة مهمة للمعرفة والإدراك لأن أبسط سبيل لتعريف ظاهرة ما ليست فقط بالبحث عن مرادف لها، بل بالبحث عن نقيضها أيضا، مشكلا نقطة تحول بين مختلف الأنساق والبنيات السيمائية الاجتماعية.

فحسب د. عبد الله بريمي "فإن الكون السميائي يتألف من "مركز" نطلق عليه نواة ومن هامش أو محيط، ومعالم كل كون سميائي هي دائما معالم غير دقيقة وغامضة تتغير باستمرار، يستحيل معها حقيقة ضبط الحدود، وهل الحد ينتمي لداخل أم لخارج الكون السميائي خلافا للنواة التي يسهل علينا كثيرا تحديد موقعها وتعريفها؟" لذا فإن الانقسام بين المركز والهامش هو في الواقع مظهر من مظاهر الفضاء السميائي الثقافي الذي تتخلله الحدود وتخترقه.

من خلال هذا الطرح يمكن تحديد (المركز) في تلك السلطة المخزنية أو ما يسمى بـ"المخزن" الذي أصبح اليوم من بين المصطلحات الحاملة لدلالات سلبية ثقيلة، تعبر عن غياب الديمقراطية، والحرية المطلقة وسيادة الدولة الديكتاتورية، أو حتى معنى الفساد، فأصبح هذا المصطلح يستخدم وبكثرة لوصف أو إدانة غياب الديمقراطية وحقوق الإنسان المرتكبة من قبل القوى البوليسية القمعية، التي تظهر جبروتها وطغيانها البين جليا في هجوماتها العدوانية على (الهامش) المتمثل

في الأستاذ الذي يقع موقع ضعف لا قوة له ولا حيلة، فيمارس على هذا الأخير كل أنواع القمع في كل محاولة احتجاج تصدر منه رغم مشروعيتها المطلقة، لأن المركز يمثل ذلك الطاغية المتعالية، وأن الذي يرفض قوانينه أو يقوم بعصيانها، يتعرض للقمع بمختلف آلياته اللاإنسانية المتمظهرة علاماتها في طريقة تفريق المحتجين بل قد تتجاوز ذلك إلى الزج بالبعض في زنازنه، واعتبار كل محتج بمثابة عاص لوطنه أو يريد الفتنة به.

وما يبدي لنا تماما سمات التناقض بين عنصري المركز والهامش، هو الصراع الحاصل والدائم بينهما، مما يشكل حدا فاصلا يتوسطهما، يساهم في خلق كون سميائي خاص، تتجاذب أطرافه وتتضارب في معركة نضال الهامش عن حقوقه المسلوبة من قبل مركز طاغ يأبى من يخالفه أو يعاكسه ويرفض تحريك أو تغيير موقعه، بل الأكثر من ذلك أنه يمثل السلطوية المتعالية لكون سميائي غير عادل لا قانونيا، ولا اجتماعيا، ولا إنسانيا، ولعله الأمر الذي يضع الهامش داخل وضعية من النفور مرددا كلمة (لا) شجبا لما فرض عليه من قوانين عمل قاسية تمثل له ضررا وأزمة نفسية عميقة.

لقد كان، وسيبقى الصراع قائما بين هاتين الثنائيتين المتناقضتين، وسيظل الهامش متشبثا بموقفه لتحقيق عدالة اجتماعية قانونية إنسانية مطلقة، تضمن له مستقبلا مستقرا وفق شروط عمل موضوعية في وطن يشاع أنه وطن الحق والقانون، في حين أن واقعه نقيض ذلك، ولعل أبسط ما يمكن أن نطلق عليه هو ما أطلقه عليه "الهامشيون" من أبنائه بالدارجة المغربية الذي نجده حاضرا وبقوة في مخيالنا الشعبي "بلاد الحكرة" كنسق مفاهيمي جديد، يحمل في طياته سمات الاحتقار والاستعلاء والظلم وغيرها من الممارسات التعنتية، التي نجد في دائرتها السميائية الاجتماعية طغيان القوي البرجوازي السلطوي على المنفي المنسي ابن الهامش، الذي يبقى ـ حتى حين - عرضة "للطحن" من قبل المركز. إنه الأمر الذي يضعنا أمام ثنائية ضدية تجعل الوطن والمجتمع المغربي في سيرورة سميائية متنافرة غير مستقرة.

# تكريس النهب والارتزاقية في ما يسمى بدعم المشاريع الثقافية والفنية

## النشر والكتاب والموسيقى والأغنية: نموذجا

• بشير الوربي

كان دعم الإبداع الثقافي والفني المغربي مطلبا مشروعا، باعتباره واجبا من واجبات الدولة، كما هو محقق في الدول الديمقراطية وفق قوانين ومساطر ومعايير عادلة وشفافة، في حين كان المعمول به عندنا قبل حكومة التناوب التوافقي هو تقديم بعض العطايا والهبات للأسماء التي تدور في فلك السلطة وتطبل وتزمر لها، بينما كانت مختلف الفنون والآداب تتنفس بصعوبة في ظروف مزرية لكنها مع ذلك راكمت روائع عديدة في المسرح والأغنية والكتاب والتشكيل. وبمجيء حكومة التناوب وتعيين الشاعر محمد الاشعري وزيرا للثقافة تم القيام بمبادرات لتقنين الدعم من خلال بلورة مشاريع مراسيم ومساطر تاهت طويلا في دهاليز الحكومة والبرلمان، وعندما بدأت تخرج للوجود تعرضت للكثير من العراقيل سواء على مستوى مصالح وزارة المالية أو من طرف الذين استطابوا الأسلوب القديم الذي كانوا يستفيدون منه تحت جنح الظلام. بيد أن نواقص وثغرات كثيرة ظهرت في محاولة تقنين الدعم بعد إخراجه إلى حيز الوجود. هكذا وخلال 15 سنة، وبين أيادي وأمزجة سبع وزراء للثقافة وشراهة لوبيات ما فتئت تتكاثر وتتوالد في أوساط الناشرين والفنانين والكتاب على شكل نقابات وجمعيات لم يعد يهم أغلبها في الأمر لا مضمون ولا قيمة المنتوج الثقافي والفني، بقدر ما يهمها التزاحم والتهافت على ما يتاح في كل مرة من إمكانيات الاستفادة من الدعم الذي تشعب وتعدد وارتفعت قيمته المادية واستبدلت مراسيمه القانونية عدة مرات. ومع أن أمر تقييم هذه التجربة قد أسال الكثير من المداد ونتج عنه الكثير من اللغط الذي كان يصل في أغلب الأحيان إلى تداول لغة منحطة غريبة عن أهل الثقافة والفن، كلما أعلنت الوزارة عن لوائح المستفيدين في كل مجال، فإن هذه الورقة تستهدف أساسا الوقوف عند مظاهر تكريس النهب والارتزاق من خلال آليات الدعم الذي كانت له أيضا بعض الجوانب المشرقة التي يمكن التطرق إليها في ورقة أخرى.

### في دعم النشر والكتاب:

كانت وزارة الثقافة في البداية تلعب دور الناشر عبر مطبعتها دار المناهل التي كانت تطبع المجلات الثقافية التي تصدرها الوزارة إلى جانب مشاريع الكتب التي يتقدم بها أصحابها أو بعض الجمعيات (اتحاد كتاب المغرب وبيت الشعر أساسا) مباشرة لمديرية الكتاب، لكن هذه الصيغة لم تكن مرغوبة من طرف شركات النشر التي كانت تضغط من أجل الاستفادة من الكعكة، عوض أن يستفيد منها الكتاب مباشرة، وهي الضغوط التي أتت أكلها، عندما قررت وزارة محمد الأشعري تخصيص دعم خاص بالناشرين وفق دفتر تحملات معين، مع الاحتفاظ بسلاسل منشورات الوزارة التي تباشرها مع الكُتَّاب من خلال دار المناهل والتي أضافت إليها سلسلة "الكتاب الأول" وسلسلة "الأعمال الكاملة"، قبل أن يتم إقبار منشورات الوزارة نهائيا خلال العشرية الثانية من هذا القرن. غير أن الذي وقع ولا زال، لم يكن أبدا في مستوى تطلعات لا الوزارة الوصية ولا الكتاب والمبدعين. بحيث أن أغلب دور النشر (باستثناء عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة) لم تكن تلتزم بدفتر التحملات، سواء فيما يتعلق بثمن الكتاب أو بحقوق المؤلفين. لقد كان من أهداف الدعم الأساسية تخفيض أثمنة الكتب المدعمة إلى مستويات تكون في متناول القراء وتشجع على القراءة، لكن المفارقة أن هذه الأثمنة كان يتم الرفع منها من طرف الناشرين عوض تخفيظها؟ ولحماية حقوق المؤلفين أضافت الوزارة في مراحل لاحقة ضرورة

توفر الناشر على نص العقد مع الكاتب ضمن ملفات الكتب التي ترشحها للدعم.، لكن دور النشر (والاستثناء لا يقاس عليه) ابتكرت طرقا تحايلية لنهب حقوق المؤلفين، منها مثلا أن تطلب من الكاتب التوقيع على وثيقة تفيد أنه توصل بكل حقوقه قبل أن يحصل على عدد معين من نسخ كتابه، ومنها أيضا أن تضع ثمنا للكتاب في الغلاف يتجاوز بأضعاف ثمن التكاليف، لتحتسب عدد النسخ التي تسلمها للكاتب مستوفية لحقوقه المادية، أذكر أن كتابا مدعما لا يتجاوز ثمن طباعته وورقه 6 دراهم، وضع الناشر على غلافه ثمن 50 درهم (لاحظوا الفرق المهول)، وذلك لِيُفهِم الكاتبَ أنه توصل ب5000 آلاف درهم كحقوق مادية لكتابه عبارة عن 100 نسخة. الأخطر من هذا أن شركات النشر هذه التي كانت تحظى في كل دورة بدعم نشر ما بين 15 و20 كتابا لكل دار، تستغل عدم توفر الوزارة الوصية على آليات حقيقية للمراقبة في التحايل عليها وعلى المؤلفين معا، فهي إذا كانت ملزمة بطباعة 1000 نسخة من كل كتاب مدعم، فإنها لا تطبع إلا 200 نسخة، تسلم بعضها للوزارة وبعضها للكاتب وتحتفظ ببعضها للحالات الطارئة، وقد تضع نسخا قليلة في مكتبة واحدة للتمويه، وهكذا تنهب المال العمومي وحقوق المؤلف وتقبر كتابه الذي لا يصل أبدا إلى القراء، وهذا مجرد فيض من غيض.

### في دعم الموسيقى والأغنية والفنون الاستعراضية

في دورة الدعم الأولى برسم سنة 2016، مثلا خصصت الوزارة الوصية 000.00.1.410 درهم لدعم الإنتاج الموسيقي والغنائي استفاد منها 14 مشروعا فقط، بينما خصصت لترويج الإنتاج الموسيقي والغنائي 1.480.000.00، استفادت منه عشرة مشاريع فقط، دون ذكر المبالغ المخصصة لدعم توزيع وتسويق الإنتاج الموسيقي والمهرجانات الموسيقية والغنائية والمشاركة في المهرجانات الموسيقية الدولية والإقامات الفنية، بينما خصصت في نفس الدورة والسنة ل490 مشروعا في نشر الكتاب والمجلات الثقافية وإطلاق وتحديث المجلات الثقافية الإلكترونية والمشاركة في معارض الكتاب الوطنية والدولية ومشاركة الكتاب المغاربة في إقامات المؤلفين وإحداث وتحديث وتنشيط مكتبات البيع والقراءة العمومية والتحسيس بها، بما مجموعه 9.400.366.00 درهم.

وفي دورة الدعم الأولى برسم سنة 2017، ارتفع المبلغ المخصص لدعم الإنتاج الموسيقي والغنائي إلى 3.060.000.00 درهم استفاد منها 23 مشروعا، في حين استفاد 13 مشروعا من المبلغ المخصص لترويج المنتوج الموسيقي والغنائي الذي ارتفع إلى 1.970.000.00، في حين ظلت الزيادة ضئيلة بالمقارنة فيما يخص نشر الكتاب والمجلات الثقافية وإطلاق وتحديث المجلات الثقافية الإلكترونية والمشاركة في معارض الكتاب الوطنية والدولية ومشاركة الكتاب المغاربة في إقامات المؤلفين وإحداث وتحديث وتنشيط مكتبات البيع والقراءة العمومية والتحسيس بها، حيث خصصت 10.489.800 درهم ل614 مشروعا.

لذلك يمكن اعتبار دعم الموسيقى والأغنية والفنون الاستعراضية من أفشل النماذج في تجربة الدعم العمومي للمشاريع الثقافية والفنية، ومن خلال سؤال بسيط يمكننا أن نخلص إلى ذلك، فلماذا لا زلنا نتذكر ونغني عن ظهر قلب روائع غنائية مغربية قبل زمن الدعم، لكننا بالمقابل وبعد سنوات من الدعم المقدم لعشرات مشاريع الأغاني لا نتذكر حتى عنوان أي أغنية من تلك الأغاني المدعمة؟

الجواب معروف ويبعث على الذهول والمرارة والأسى، خصوصا إذا علمنا أن الدعم المقدم لمشروع أغنية واحدة يساوي الدعم المقدم لما بين عشرين وأربعين مشروع كتاب، على اعتبار أن المبالغ المخصصة لدعم إنتاج الأغاني تتراوح ما بين 40 ألف و200 ألف درهم للمشروع الواحد، بينما يتراوح مبلغ الدعم المخصص لطباعة ونشر الكتب ما بين 8 آلاف و30 ألف درهم للكتاب الواحد، مع أن الأغلبية الساحقة للكتب لا تحصل إلا على 10 آلاف درهم لطباعة ألف نسخة. وهنا يتوضح جليا اختزال السلطة للثقافة في الشطيح والرديح، واحتقارها للكتاب والكتابة والقراءة من جهة، كما يتوضح كيف يتم نهب المال العمومي من طرف لوبيات محترفة تتحايل على المساطر القانونية في مشاريع جزء منها وهمي وصوري، وأغلبها فاشل ولا أثر له حسب النموذج الذي قدمناه فيما يخص دعم الموسيقى والأغنية، كما يتوضح فشل الوزارة الوصية في الحد من هذا النهب رغم كل الاحترازات القانونية والمسطرية التي تلجأ في كل مرة إلى تطويرها وتشديدها، وذلك بسبب ضعف مواردها البشرية وآلياتها الميدانية للمتابعة والمراقبة والمحاسبة، من الناحية التقنية، والاستمرار في التقليل من أهمية قطاع الثقافة واعتباره بلغة المغاربة مجرد "خضرة فوق طعام"، مما ينعكس على طبيعة وتوقيت التعيينات الخاصة بمنصب الوزير، وما ينتج عن ذلك من الارتباكات في السير العادي للقطاع، من الناحية السياسية.

قصة...

# الحياة الدفينة

• عبير ابراهيمي

أجواء العزاء ما تزال قائمة، حتى بعد مرور يوم عن تشييع ودفن جثمان الحاجة رحمة، وحالة من الحزن القاتم تخيم على بيتها.. وأقرباؤها يبكون حسرة فراقها.

لم يكن للحاجة زوج ولا أولاد ليشيروا شفقة الحاضرين، ولم تمت في سن مبكر بل حتى بلغت من العمر عتيا وهي في عقدها الثامن، كما أنها كانت امرأة صالحة والكل يشهد بطيبتها، فلا خوف عليها يوم تلقى ربها..
إذن لماذا كل تلك الدموع؟ ربما جميع الحاضرين أو أغلبهم على الأقل كانوا يبكون حسرة على أنفسهم، وخوفا من أن تحين ساعتهم وهم لم يشبعوا من ملذات الدنيا بعد، أو ربما لأن الموت هو الحقيقة الوحيدة التي لا يمكن لأحد أن ينكرها.

لكن بمجرد أن يجتمع الحاضرون حول مائدة الطعام، حتى يبدأ الحديث عن أمور الدنيا ناسين فكرة الموت التي كانت ترعبهم منذ دقائق.. ربما هي غريزة البقاء الكامنة في دواخلهم من انتصرت للحياة.

بعيدا عن أجواء العزاء وفي ظلام المقابر المرعب، يرقد جثمان الحاجة رحمة، وحيدة لا أنيس لها غير الأرواح التي تمكث بجوارها. ووحدها الدموع التي روت الأرض طيلة اليوم تحكي قصص ألم الفقدان وأنين الأحبة المارين من هناك.

اللحظة الفارقة، أنه عندما يدخل المرء إلى هذا المكان فأول ما يتبادر إلى ذهنه هو: إلى أين يذهب الميت؟ هل هو مجرد جسد سيكون فريسة الدود ليبث الحياة في شجرة أو زهرة بعد مضي سنوات؟ أم هو روح ستلقى لربها في العالم الآخر؟! لا أحد يعرف المصير، ولعل هذا ما يجعل الموت مرعبا.. فلا أحدا عاد من هناك ليخبر الناس ما الذي يحدث بعد الموت!

عندما خلد حارس المقبرة إلى النوم، نهض الموق من قبورهم وكأنهم بعثوا للحياة مرة أخرى، لكن هذه المرة في هيئة لا تشبه تلك التي دفنوا عليها. الصغار بعثوا كهولا والشيوخ بعوثوا صغارا، أما الحاجة رحمة فقد نهضت من قبرها كامرأة في عقدها الثالث، وسارت من سرداب الموق نحو منزل كان بمقربة المقبرة.. دخلته ثم نامت. وفي الصباح عندما استيقظت نظرت إلى نفسها في المرآة، لم تكن بنفس الجمال الذي كانت عليه في الحياة الأولى، عيناها أصبحتا أصغر مما كانتا عليه، وقوامها ما عاد ممشوقا كما كان. ولون بشرتها الأسمر المثير بات أصفر يحيل على إصابتها بمرض خطير ربما.

نظرت إلى المكان الذي توجد فيه، كان مألوفا بالنسبة لها، فهذا هو البيت الذي كانت تشتغل فيه كخادمة في حياتها السابقة. وفي المطبخ كانت سيدة البيت سابقا، هي التي تشغل دور الخادمة، عندما رأتها رحمة أول ما خطر ببالها هي الحقارة والنذالة التي كانت تعاملها بها، والنظرة الدنيئة التي كانت ترمقها بها دائما.. ثم بدأت تسترجع ذكرياتها المريرة معها.. (رحمة كانت امرأة طيبة ترد السيئة بالفعل الطيب، لكن هل هذا الأمر يسري حتى على هذه الحياة؟ هل القيم بقيت ثابتة؟)..، بعدما أكملت رحمة استرجاع شريط المعاناة التي عاشتها مع سيدة البيت، ألقت عليها التحية وقالت: "أسعد الله يومك". ثم ذهبت لتناول طعام الإفطار، حيث انتبهت إلى أنها قادرة على قراءة ما هو مكتوب على جريدة كانت موضوعة على الطاولة، شعرت برعشة تعتريها من أخمص قدميها حتى رأسها.. وهي الآن قادرة على القراءة، تلك النعمة التي حرمت منها طيلة السنين التي عاشتها في الحياة الأخرى.. وما إن استفاقت من فرحتها الأولى حتى سمعت صوتا يناديها: "ماما" التفتت وإذا بها تجد طفلا في عمر الأربع سنوات، احتضنته فشعرت أن حياتها تتلخص في دفء هذا الحضن.. أمضت اليوم بأكمله تلعب مع طفلها وتستمتع بقراءة كل حرف تشاهده عيناها..

عندما حل المساء دخل زوجها، كان هو الآخر في الثلاثينيات من عمره، وقد كان يشبه الصورة التي رسمتها في خيالها عن زوجها عندما كانت شابة (في الحياة الأولى)، قضيا ليلتهما يمارسان الحب بشغف. بعد انقضاء النشوة، أغمضت رحمة عينيها، وشعرت بأنها على وشك أن تنغمس في سكرات الموت مرة أخرى.

في صباح اليوم الموالي، وجدت نفسها مراهقة لم تبلغ عقدها الثاني بعد، عندما نظرت إلى نفسها في المرآة شعرت بفرح يغمرها وعيناها تلمعان، على عكس المراهقة التي كانت عليها في حياتها السابقة، فقد كانت قد هرمت وهي لم تبلغ الخامسة عشر من عمرها، حين توفي والداها وتركاها تصارع مآسي الدنيا وحيدة، لقد انطفأت شمعتها قبل أن تشتعل، وذبلت زهور ربيعها قبل أن تتفتح.. أما الآن فروحها مفعمة بالحياة والحب، وما زاد من فرحها ووتيرة نبض قلبها هو صوت أمها وهي تناديها "ابنتي رحمة"، أحست وكأنها خلقت صماء وأن أول صوت ستسمعه هو صوت أمها. عانقتها عناقا طويلا خفف وجع وشوق السنين العجاف التي قضتها وحيدة. لكن ما زاد اشتعال نار الشوق حقا، هو قدوم والدها أيضا، والذي انقضت عليه هو الأخر لتعانقه بلهفة لا حدود لها..

أقلها والدها الى المدرسة، - هذا المكان الذي كانت دائما تحلم بزيارته لتكتشف ما يحدث داخل جدرانه -، ها هي تدخله الآن مزهوة، كتلميذة متفوقة في دراستها..
عندما دخلت الفصل لم تستطع كبح فرحها وسعادتها، ومع كل معلومة كانت تكتسبها كان قلبها يخفق بقوة لا نظير لها.

في المساء حين عادت إلى البيت، قضت ليلتها في حضن أبويها، وهي تُدفئ روحها التي تجمدت في غيابهما السابق، وعندما كانت تروي عطش عينيها بملامح أبويها التي اضمرتهما الصبابة، أبصرت مرة أخرى شبح الموت يقترب منها ليخطف روحها ثانية..

اليوم هو آخر يوم ستعيشه في حياة مشابهة للحياة التي تمت الولادة فيها، استيقظت طفلة في عمر الثماني سنوات. طفلة تنبض بالأمل والفرح. وككل الأطفال بعدما أفطرت، خرجت لتلعب مع صديقاتها في الحي. كانت تقفز وتمرح هنا وهناك، وتتمتع بطفولتها التي حرمت منها في الحياة الأولى، فلن تحمل هم رعي الأغنام أو قطع المسافات الطويلة من أجل جلب الماء.. وهي منغمسة في اللعب، ودون أن تشعر سقطت فجأة أرضا، وبدأت تعتريها سكرات الموت مرة أخرى.. في هذه اللحظة تذكرت أنها في الحياة الأولى كانت تقول: "لماذا بعد الموت لا نعيش حياة أخرى؟"، حياة لا تشبه هاته التي عشناها ونحن أحياء. ليعيش الفقير حياة الغني والغني حياة الفقير، لينقضي عمر الشيوخ مبكرا ويطول عمر الأطفال الذين حرموا من الحياة، أن يعيش المجنون مثل العاقل ويتوه العاقل في متاهة الجنون، أن ينعم بالسلم من عاشوا سنوات الحرب المرعبة، وأن يتذوق مرارة الحرب من كان ينتظر أخبارها بلهفة في نشرات الأخبار، من قاسى المرض في الحياة الأولى فلينعم بالصحة في الحياة الثانية، ومن هنأ بصحته فليقاسي آلام المرض..

فليتجرع كل امرئ مرارة الحياة مرة، وليداعب نعيمها مرة أخرى. لأن حياة واحدة ليست عادلة، فمن عاش سعيدا طول عمره وحزن مرة، ليس كمن عاش البؤس العمر كله وارتسمت الابتسامة مرة واحدة على شفتيه..

لم تمر سوى ثوان معدودات حتى وافتها المنية، ورحلت نحو المجهول.

قصة...

# تلويحة الأيدي!

• رباب هلال _ دمشق

الوقت حرب. وللحرب الوقت كلّه.
في سورية، لدينا أحدث الحروب، وأحدث تجليّات اليباب! حداثة طالت استغرابنا، ذهولنا، رعبنا، عجزنا، ويأسنا! يداي عاجزتان، وأصابعي واهنة. العجز، في حداثته الباذخة، يمزّقنا! لم يكن بمقدوري، ردع أخوتي عن التحارب. بلى، هم جميعهم، يكادون أخوتي، لولا طفرة قدريّة!
ذات ظهيرة من يوميّات الحرب، دوّى صوت انفجار قريب، فيما كنت منشغلة بالطفل ذي السنوات الست بجانبي، وبأصابعه وهي تتهجّى الكتابة! توقّف ليسألني بطفوليّة سوريّة مُحدثة:" هذا الانفجار معنا، أم ضدّنا؟"طمأنته بضحكة تغالب دمعة:" معنا!" فأردف بحماس:"حين أكبر، سأقتل الأعداء كلّهم! "كادت أنفاسي تغادرني!
تابع الطفل. كتب اسمي، ورسم حوله قلباً! ثمّ دلق في عينيّ ابتسامته. أرعشت روحي في يباسها. شكرته، وأثنيت عليه. فتوسّعت ابتسامته. تُعجز ابتسامته التحديثَ عن بلوغها! ولطالما أمعن النظر في يديه الغضّتين، وأفكّر إلامَ سيؤول بهذا التحديث السوري المدمّر مستقبلاً؟ هل سيحمل بندقيّة؟ أم علبة ألوان ليرسم غرينيكا سوريّة، مثلاً؟ أم أنّه بعد اكتشافه الخديعة، سيشرّح حكاياتي التي كانت تأسره في أحلام ورديّة؟ وقد يدينني! أم أنّه سيلوّح بالوداع، في فراره خارج البلاد؟
تابع الطفل الكتابة والقراءة. بينما كان أوار حريق تلويحات الأيدي يتأجّج داخلي! فهُرعت إلى القلب الذي رسمه حول اسمي، به أحتمي وفيه أستكين!
سنوات الحرب توغل في إيلامنا، ولا أنفكُّ أتشظّى وأتفتّت وسط الأيدي الملوّحة الغفيرة. وذلك، منذ ما قبل زمن احتراق البوعزيزي التونسي، والبوعزيزي الليبي، والبوعزيزي اليمني، والعراقي،المصري، الفلسطيني، السوري، واللبناني، و...!
وبالتأكيد، لن يتوقّف قتلنا، عند الطفل المغربي"عدنان بوشوف"،بسنواته العشر، التي كابدها والداه لتجهيزه للحياة. ويقضّني السؤال، هل تسنّى لعدنان في اختناقه آن قتله، أن يلوّح بيديه توسّلاً لإنقاذ ما، أو لرحمة ضالّة؟!
يا لتلويحة الأيادي المتكاثرة،على أراضينا المحقونة بالأنعام الملعونة، المكتظّة بينابيع دمائنا الفائرة، من المحيط إلى الخليج! أراها في الساعات، تحت الشمس، وفي ضوء القمر، في تلبّد الغيوم، وشراسة المطر على منازل بلا نوافذ أو أبواب، في القرّ المدلهمّ، في رغيف الخبز العصيّ بين يديّ تجّار أرواحنا، وفي العجز المستبدّ بحبك بالكوابيس رقادنا المشتهى! أراها تلويحة إثر أخرى؛ تلويحة الأيدي اليائسة من خلف القضبان الآثمة. تلويحة وداع الأيدي المقتلعة من جذورها، المقذوفة إلى شتاتها الجريح. تلويحة الأيدي المستغيثة من تحت الركام، وسط الغبار الأحمر، والأمل الأصفر. وتلويحة الأيدي المقتولة تتحجّر في موتها، تنبثق من شقوق الخراب الدامي، نتوءات صخريّة مدبّبة، تنمو في رقاب قاتليها وعلى صدورهم، ومثل شتلات غضّة تعشب في نزيف قلوبنا العاجزة، والذاكرة السوداء/عارنا!
فأيّ شعور علينا ارتكابه؟ جلد الذات، نحن العزّل؟!أم الصمت في انسحاقنا الأليم، وسُحقنا المرعب! وحده الشعور بالعجز كمسامير نعال الغزاة العسكريّة، لا يكفّ عن دعسنا وتجريحنا!
أستبقي الطفل إلى جانبي، يقرأ، يكتب ويرسم. أحكّم أسْرَه بالحكايات، وله ما يشاء من الأسئلة المضنية، يطفح بها رأسي. أتوسّل بقاءه، لتترعرع ابتسامتي مع كلّ قلب يرسمه حول اسمي. بقلوبه تتنوّع ملاذاتي الآمنة، أخفّف من الضجر المقهور، بانتظار جفاف الدم في المآقي، وعلى أمل أنْ أيّة تلويحة سوريّة لن تَخْبَرَها يداه الطفليّتان هاتان في قادم الزمن!
هذا النهار، رسمني زهرة حمراء داخل قلب أزرق، الأزرق الذي نحبّ معاً. قال لي! بيديّ العاجزتيْن احتضنت يديه، قبّلتُ أصابعه، إصبعاً إصبعاً، أستجديها القوّةَ صلاةً، لأمكّن أصابعي من تدوين ما أبرطم به الآن!

# وحدي أمشي...

ليس بيدي شيء..
ها أنا أبسطها..كجناح طير،
هي لا تحمل سوى خطوط متشابكة..
وحظ عثر.
كم بكت هذه اليد.
كم تألمت هذه الأصابع.
لكن..
ليس بيدها شيء.
هكذا.. يمر الزمن
من بين أناملها.. وينفلت
فتشيخ.. وترتجف.
ما معنى أن يكون لك يدان
وأنت عاجز..عن مسح ألمك.. ؟
في راحتي، جرح ودمعة
كفن وتراب.
هذا، ما قالته لي العرافة في ذلك المساء.
ضحكت عليها وعلي.. ثم مضيت،
أعاند القدر.. والمصير.
ليس بيدي شيء
لا أمنية.. ولا حلم
فراغ كبير
سواد كثير
ونجمة بعيدة.. تظهر وتختفي.
على هذه الراحة،
مرثية الخنساء..ألفية قيس،
أشعار درويش.. وبعض من فلسفة الحياة.
كلما حزنت غصت فيها
وتنفست الصعداء.
على ظهر هذه اليد
وجع السنون.. وكل الخيبات..
والكثير من الثقوب والعيوب.
قرصت كلتا وجنتي
علي أستفيق..
خطوت خطوة للأمام
أدوس على العشب والشوك
لا مكان للألم هنا
فالطريق وعر.. مر..
يضيع فيه الضعاف
وحدي أمشي..
لا أنتظر المعجزات ولا أخشى الآتي.
ما الحياة إلا مدينة ألعاب وأشباح
جمعت كل المتناقضات.
وأنا الأقحوانة مكسورة الساق
صامدة كالجبل..
ومن خلفها تشرق الشمس،
والنهاية، واحدة توحدنا
على كف واحد..
فلم الحزن... ؟!

# الرغبةُ في الاختيار

• ياسين معيزو

العاشرُ من كانون؛ حيث يعلو الصُّراخ عند أوّل منفذٍ للحياة.. لا أستطيع التذكُّر أين كنت قبل ذلك.. كانت أمّي تقول: "كُنت هُنا!"، في إشارة إلى بَطنِها.. أبتسمُ لِعفويّة جوابها وأقبله على مَضَضٍ.

لا بُدّ أن حياتي السّابقة كانت خارج اعتباراتي؛ لذا لم أتذكّر أيّ حدثٍ أو صورةٍ عابرةٍ يُمكن أن أكون طرفا فيها أو مشاركا في صُنعها، أو حتى كومبارسا رخيصا تحت رحمتها. فُوجئت بعد أن قُطع الحبل السرّي أن اسمي "زياد"، وأني منذ اليوم محكومٌ بالعيش في هذا العالم الجديد عني تماما.. عِشتُ محروما من نِعمة الاختيار.. تكلّفوا بكل شيء بدل عني؛ اسمي.. لوني.. شعري الأجعد. وعندما صَلُبَ عُودي لم ينمُ شعر ذقني.. علمت بعدها أن جَدّي كان أَمْرَدَ.

عُدت إلى المنزل متأخرا، صرَخت أمّي بوجهي: "رْجَعْ لجَّايْحَة لِّي جِيتِي مِنْهَا..."، أغلقت الباب من خلفي وأنا أفكر في تلك "الجَّايْحَة" التي علي العودة إليها مُرغَما. سِرت ليلتها مُتسكِّعا بين المطارق والسنادين.. سامرت الكلاب والحمقى.. حاورت النجوم والخفافيش، ظلّت تلك الكلمة تراقص خاطري ولم تبرحه، للحظة خلت أنها مأوى غير المرغوبين بهم، كان يبدو ذلك جليا وأنا أسأل مرّة أستاذ التاريخ عن المكان الذي حل منه هذا المستوطن لفلسطين، بسخرية أجابني: من كل "جَائِحَةٍ" بهذه الأرض يا ولدي". لم يغير جوابه بالنسبة لي شيئا، غير تأكيده على أن "الجَّايْحَة" كانت ولا زالت مبعثا للسوء ومصدرا للشرور.

كانت الحياة، بالنسبة لي، أشبه بمحاصرة صرصار بإحدى زوايا حمَّامنا.. عمليّة غير مُكلِّفة.. وأنا الماسك زمام أمورها. ما فَتِئت الحياة تنفلتُ مني ببطء مُقيتٍ.. بدأ ذلك بعد أن تحصّلتُ على "دِبلومِيَ" الجامعي، رفضتُ طلب أمي في أن أشتغل مع خالي "حسان"بالمطعم.. رفضْت لكوني ما أزال غَضّاً في عالم الخريجين، وأنَّ"دبلوماً" أنفقتُ عليه شقاء عُمري، حتما سيشفع لي بدخل قارٍ، على قِلّتِه، يُسعفني في مجاراة الزمن الذي بات من الصعب القبض عليه، نظرا لطبيعته المنفلتة.

خَفِقت في السّنة المُوالية في الحفاظ على أوّل تجربة حبٍ أخُوضُها.. وجدت في مطعم خالي عزاء ومذهبا لإخفاقاتي المتكررة..؛ غسل الأطباق، تحضير السَّلطاتِ، إعداد الشاي.. وغيرها.

يجافيني النوم.. يسخر مني الليل.. أظل تائها بين ظُلمته الدامسة !.. يُغريني السُكون فأستسلم له ..تتقاذفني صور مبعثرة.. أتعرّفُ على بعضها.. وينفلتُ الباقي مني كحباتالزئبق.. تُغازلني الأسئلة.. أظلُّ مشدوها لجُرأتي: "أحقًّا كان يمكن أن أكون في موضع آخر غير الذي يحجبني الآن عن النظر.. ما الذي كنت سأكونه لو رُزقت بين أسرة غير أسرتنا التي لا تقدم لأبنائها شيئا غير الدُّعاء: "اللّه يْرْضِي عَلِيكْ".."اللّه يْلَقِيهَا لِيكْ"؛ كانت أمي ستحظى بعناية تليق بها وهي تضعني بال"كلينيك" .. لم تكن لتتألم لولادتي مرتين؛ ليلتها... واليوم.. وما كانت لتصفعني كفُّ جارتنا "خَدُّوجُ" الخشنة، كانت الصَّفعة المُبكية إيذاناً بحياةٍ مَحفُوفةٍ بالعقابِ، لم أكن لأستوعب حينها أنه درس في الأنثروبولوجيا.

قبل التاسعة مساء، يكون بيني وبين إخلاء المطعم صحنٌ.. أفرُكُه بسرعة وأسدل فوقه مياه الصنبور.. أقترب من البيت.. أسمع نَحِيباً يصدر من الداخل.. أتجاوز ببطء عتبة الدار.. أرمُقُ زوجا من أحذية صغيرة.. إنها أختي !.. أُلقي سلاما على عَجل، وأمرّ إلى الغرفة المُوالية. لم أكلِّف نفسي عناء التساؤل، فلن يكون غضبها هذه المرة مختلفا عن سابقه، وما أن يبزُغ الصُّبح حتى نسمع وقع أقدام المهدي بحذائه العالي الضّخم الذي يُوقظ الموتى من سُباتهم، يَشكو ضنك الحال، وطلبات أختي التي لا تنتهي... تصرُخ بوجهه ما إن يلفظ اسمها: "مَاتْحَمْلِتِينِيشْ .. طَلْقَنِي آسِّي.."، ثم تنتهي الحكاية بالعودة إلى منزلهما. اقتربت " اللّيَالِي".. وقل الإقبال على المطعم بشكل كبير، ما جعل فرصتي في الاستمرار بالعمل شبه منعدمة، تركت المطعم.. ورحت أبحث لنفسي عن مصدر آخر يساعدني على الاستمرار في الزمن.

في الزوال، كنت على موعد مع مُمثل إحدى شركات النَّسيج الشهيرة بالمدينة، لم تدُم المقابلة طويلا ليدعوني إلى إيداع سيرتي الشخصية فوق طاولةٍ على مقربة من الباب، تركتها حيث ما تمّ، وعُدت إلى البيت أجرُّ أذيال الهزيمة، وأحمل خيباتي المتواترة...

مرّت ليلتي تلك على غير عادتها.. لم أتناول عشائيَ بالشهيّة المعتادة، منذ أن كنت شَغّالا بمطعم خالي.. لم تُراودني كوابيس العطالة، ولم أضاجع الحسناء الإسبانية بإحدى مواخير "كوستا برافا " السّاحلية.. لم تُوقظني حادثة الزّورق المطّاطي مفجوعا.. ولا تأسّفت لتضييعها بوصلة الطّريق.. وحين يبزُغ نور الصّباح، لن أكون عالةً على أمّي، ولن أصير بعدها مَسّاحاً للأطباق بمطعم خالي، وحتى أختي، سأكون بمنأى عن صراعها المستمرّ مع "المهدي" والزمن؛ لكوني سأعود إلى الحياة التي حلمت بالعودة إليها، حتى وإن لم تكن مختلفة عن سابقتِها، إلّا أنّي لن أكون هذه المرّة مُرغَماً.

## شعر | ملاك الأرصفة

• أمينة الخربوع

أتانا ملاك الأحلام
يحمل دمعة غراب
يزعق بالكلمات
حال وجهه المشوه يقول:
"في هذا البلد،
نموت سكرة..سكرة،
يصنعون من أسنانا
مضغة خبز خرافية
ويأكلون مكاننا...
أنفسنا...
تنطفئ الشمعة
يبقى لنا منا...
بعض منا،
تتغذى الحسرة
جوعى...
تأكل الفراغ"
أتانا ملاك الأحلام
يبكي....
يزعق بالعبرات:
"نحن...
في هذا البلد أشواق..
لشيء ما
لقبلة حب
أو ربما عناق...
نحن في هذا البلد ..
نموت من اجل ضمة
وفي الصبح نكسر
أتانا في كفه سقاء شفة متشققة
منديل لدمعة طفل اغتالوا حلمه
الصغير
طاقة ورد لوجد فقير
وربطة نعنع لليال عاكسها القدر
لأياد تشابكت
تباعدت ...
أتانا غراب النهايات التعيسة
في كفه إزرام...
في معشاه تتفجر نسائم الأمل.
في عينيه ينبض ضوء القمر،
أتانا ...
غادرنا...
فقدنا لذة الحلم.

# اعتقال المخرج السينمائي السوداني "هشام حجوج كوكا"

يوم الخميس 17 شتنبر 2020 تم اعتقال المخرج السينمائي السوداني " هشام حجوج كوكا" وحكم عليه بالسجن شهرين وغرامة مالية محددة في 90 اورو على خلفية مشاركته خلال شهر غشت بوقفة احتجاجية شارك فيها عدد من الفنانين، وقد " اعتدت الشرطة- حسب شهود عيان- عليهم بالضرب ... "مع فتح محاضر إدانة بالإزعاج العام وكسر الحظر الصحي " تهم" وجهت ل "هشام حجوج كوكا" وعدد من الفنانين السودانيين من بينهم: دعاء طارق، عبد الرحمن محمد حمدان، أيمن خلف الله محمد احمد، احمد الصادق احمد حماد.... وآخرين والذين يبلغ عددهم في المجموع 11 فردا وبعد النطق بالحكم تم إيداعهم بسجن امدرمان.

وسبب الاعتقال اثار مجموعة من ردود الفعل ذلك ان أن " مجموعة فيد للفنون " اتهمت حسب الشرطة" بتهمة الإزعاج العام" أما أحد أعضاء " مجموعة فيد " فصرح لمحطة للإذاعة المحلية " أن أفراد الشرطة دونوا بلاغاً بالإزعاج العام بسبب هتاف أعضاء المجموعة ضد رجال الشرطة داخل حراسات القسم الأوسط بعد ما ضرب شرطي "دعاء طارق" العضوة بالمجموعة بسبب احتجاجها على تصويره لها بهاتفه ورفضه مسح الصورة..." أما المنتج السينمائي والتلفزية "ستيفن ماركوفيتز" ( من إفريقيا الجنوبية ) فاعتبر " الاتهامات كلها ملفقة وليس لها من مسببات مقنعة للاعتقال " وقد نددت العديد من الهيئات السينمائية بهذا الاعتقال الذي تعتبره تعسفيا وتطالب السلطات السودانية بإطلاق سراح كافة المعتقلين المرافقين ل "هشام حجوج كوكا".

والسينمائي السوداني "هشام حجوج كوكا" ولد بالسودان في 8 مايو 1976 وهو من جماعة "مهاس العرقية " وهو مصور ومؤلف ومخرج، بشمال السودان، ودرس في لبنان والولايات المتحدة، ويعيش حالياً بين نيروبي و"جبال النوبة" السودانية، وعمل مراسلاً حربياً ومخرجاً للأشرطة الوثائقية. اخرج أول شريط سينمائي بعنوان " "إيقاعات الانتنوف ""(65دقيقة) والذي شارك به ضمن المسابقة الرسمية للمهرجان السينمائي لمدينة طورنطو وحصل بواسطته على جائزة أحسن شريط وثائقي بمهرجان طريفة السينمائي ومهرجان "البندقية" السينمائي... كما اطر عدد من الورشات في المهن السينمائية بأعالي جبال النوبة وبواحات النيل الأزرق ..واخرج " اكاشا " ( 78دقيقة روائي ) سنة 2018 وهو ثاني شريط له ضمن فيلموغرافيته واكاشا هي الحملة التي تنظمها القوات الأمنية للقبض على الشباب وتجنيدهم في الجيش، أو لتفريغ الأسواق من الباعة الجوالين والمشردين والمتسولين، وشارك هذا الشريط بالدورة 17 للمهرجان الدولي للفيلم بمراكش.

والمخرج السينمائي السوداني " هشام حجوج كوكا" وقد انظم في السنة الحالية للأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم السينمائية "أوسكار" وتجد الإشارة إلى أن هذا الاعتقال وضع السلطات السودانية مرة أخرى أمام محك حقوق الإنسان وحرية التعبير في الوقت ذات فتحة عرائض دولية للتنديد بهذا الاعتقال.

• ثلاث عبد العزيز صالح


| | | | |
|---|---|---|---|
| مدير النشر | عبد الواحد المهتاني | التوزيع | سابريس |
| رئيس التحرير | يزيد البركة | العنوان | رقم 1 زنقة أحمد الكرناوي الطابق الأول ساحة ماريشال، الدار البيضاء. |
| سكرتير التحرير | عبد الغني عارف | مكتب الطريق بالرباط | شارع المقاومة رقم 58 حي المحيط الرباط. |
| المدير الفني | إسماعيل المتقي | البريد الالكتروني | attarik.journal@gmail.com |
| المدير الإداري والمالي | لحسن خطار | الهاتف | 07 08 80 90 87 |
| الإيداع القانوني | 16/2018 ص ح. | رقم الحساب البنكي | BMCE: 011794000045210000323097 |
| المطبعة | ايكوبرينت | النسخة الالكترونية | www.attarik.net |
| عدد السحب | 5000 نسخة | دورية الجريدة | أسبوعية / شهرية (مؤقتا) |
| رقم الايداع | 2019PE0068 | الرقم الدولي المعياري للدوريات | ISSN 2658 -8161 |

## تحف فنية....

# لوحة "الضريح"

الطاهر بن جلون – 2016

لوحة زيتية للكاتب / الرسام المغربي، الطاهر بنجلون، والتي بلغ ارتفاعها 117 سم، وعرضها 90 سم، أبدعها سنة 2016. لوحة "الضريح"، حيث طغيان ألوان الحياة على دلالة الموت بالأضرحة، تختزل المخيال العتيق لكتابات الطاهر بنجلون، حول الحواري السحيقة وقصص العوالم السرية للمغرب، وروحانيات الخرافات المحكية، عبق الشوارع القديمة وأبخرة الأماكن الغرائبية.. وهي تذكرنا بروايته "ليلة القدر" التي كشفت بجرأتها مستور المحراب "المقدس"..

# القبة

## عيطة منعم وحتي

منذ صغري كانت تستهويني هندسة القباب، بشكلها الدائري العجيب والمقوس خارجيا، وتقعر تجويف السقف الداخلي في صحن الأبنية، وحين الغوص في تاريخها، تجد أن الحضارات القديمة بالعراق وسوريا كانت سباقة لهذا النوع البديع من الأبنية، كمخازن ومقابر ومعابد.

ارتبطت القباب في ذاكرتي، بالصعلكة بجوار مزارات "الأولياء الصالحين"، وقد اتخذت أبنيتها نفس شكل القباب، مزارات تشغل حيزا مهما من الاعتقاد الشعبي، والذي يأخذ في الغالب مسوحا اجتماعية صرفة، رغم المظهر الديني الذي يحاول منتفعو هاته الأضرحة صبغه به. وتحضرنا هنا فتاوي ابن تيمية حول خوارق ساكنة قبور "الأولياء"، حين يقول : "ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات، في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات". رغم أن فرقا متكلمة رفعت مقام العقل كالمعتزلة، نفت وفندت بمنطق العقل هرطقات ما نسب "للأولياء" من خوارق ومعجزات وبركات..

كنا ونحن صغار، نتلصص على زوار قبة "الولي سيد الحضري"، نراقب حركاتهم وسكناتهم، ليس حبا في التلصص، بل استراقا للحظات خلو الممر لداخل القبة، حتى نظفر بغنيمة الشمع والقطع النقدية، بل حتى قطع السكر التي يتركها الزوار، طلاب البركات وخوارق ساكن القبر ذي الرداء الأخضر.. نتسلل خلسة ننفذ جريمتنا الطفولية "البريئة" ونغادر. وما كان يثير حيرتي ورهبتي في نفس الآن، شجرة الزيتون الضخمة على مدخل الضريح، حيث المكان المفضل للنساء، تعقدن خيوطهن الملونة، وأشياءهن الغريبة على أغصان الزيتونة.. وكم من حكايات البوح أنصتنا لها من أفواه نساء مكلومات، بمرارة طلب بركات "الولي الميت"، أملا في زواج، أو فك عقم أو عودة فحولة زوج أو تشتيت عش عدو.. قصص بعدد شعر الرأس وبعدد عقد الخيوط المتدلية عن الزيتونة.

حالات اجتماعية، منكسرة، تلتمس الخلاص عبر بركات ساكن الضريح، طمعا في قشة خلاص تختلط فيها الشعوذة بالخرافة، بالأمل، بالرهاب، وموروث ثقافة البركات البائدة.

لكن فضاء الضريح ليس مكانا للألم فقط، بل للمتعة والبهجة أيضا، حيث تتربع تحت ذات الزيتونة مستعمرة من بقايا قناني الجعة والنبيذ المكسورة، ما يثبت أجواء احتفالية الليل التي تعم محيط الضريح وهو يشرف على مقبرة القرية، المكان المفضل لاحتساء خمرة نهاية يوم متعب لمياوم مستعبد في حقول الجوار، وفي الغالب تستعمل نفس الكؤوس التي تحمل شموع زوار النهار في سهرة الليل، فضاء يشهد أيضا على المغامرات الأولى للقرويين مع النساء، فضاء للرجاء وطلب العلاج والأمل بالخوارق وطلب المتعة والحماية والانتشاء.

بكل اختصار محراب لكل الديانات الوثنية والتوحيدية واللاأدرية. كل القرية تعرف أدق تفاصيل زوار النهار والليل، وتعدد وتنوع رغبات الزوار، ومشارب اعتقاداتهم البالغة حدود التناقض والتعقيد، لكن الأجمل في كل ذلك أن الكل يتعايش وينصهر في فضاء القبة، رغم اختلاف المآرب.

قسيمة الإشتراك

الطريق

السيد رئيس تحرير جريدة الطريق المحترم
تحية طيبة وبعد، أرجوقبول اشتراكي السنوي في جريدة الطريق، وارسالها على العنوان الموضح جانبه.

الاسم الكامل :.....
العنوان :.....
.....
.....
.....
البريد الالكتروني :.....
الهاتف :.....

| نوع الاشتراك | بالمغرب | خارج المغرب | الاشتراك التشجيعي |
|---|---|---|---|
| | ☐ أفراد 200 درهم | ☐ أفراد 400 درهم | مفتوح |
| | ☐ مؤسسات 500 درهم | ☐ مؤسسات 600 درهم | |

رقم الحساب البنكي : BMCE: 011794000045210000323097
البنك المغربي للتجارة الخارجية - وكالة البستان - الدار البيضاء

ترسل صورة قسيمة الاشتراك وصورة وصل التحويل البنكي على البريد الالكتروني التالي:
attarik.journal@gmail.com